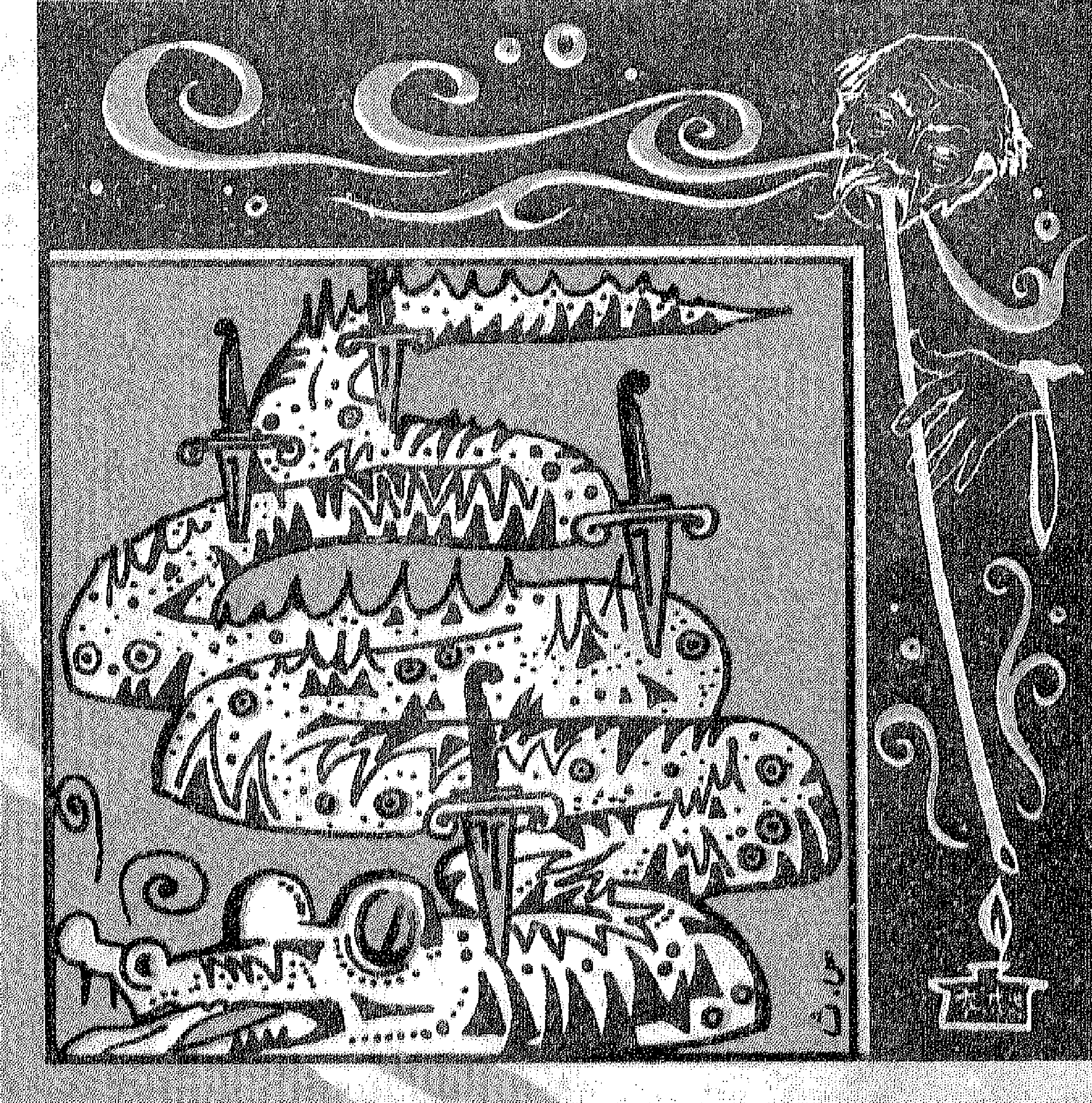
إقرأ

حرب الأفيون



محمد الغريب موسى

دار المعارف بمصر



تصدر فى اول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان





محمد العزب موسى

حرب الأفيون

اقرأ ٣١١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١١ – نوفمبر سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

مقدمة

إذا كنا نتعرض الآن لعدوان الإمبريالية على وطننا العربى عن طريق أداتها إسرائيل ، فقد تعرضت شعوب أخرى كثيرة ، ولا تزال شعوب أخرى تتعرض ، لنفس هذا العدوان الإمبريالى الذى يمثل قمة الموجة الاستعمارية فى العصر الحديث .

ومن هذه الشعوب الشعب الصينى العظيم الذى تعرض فى القرن الماضى لأكبر مؤامرة استعمارية إجرامية فى التاريخ حين شنت عليه بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية حروباً عنيفة لإرغامه على استهلاك الأفيون ، وفتح أسواقه الشاسعة للبضائع ورءوس الأموال الغربية .

ومرحلة حروب الأفيون فى الصين دراما طويلة محزنة نجد أنفسنا فيها إزاء مقاومة بطولية تخمد بأبشع الأساليب وأكثرها تجرداً من الإنسانية ، وإزاء تضحيات خارقة من بسطاء الناس وخيانة خسيسة من الإقطاعيين والعملاء ، وإزاء تصميم خارق من الشعب ومهادنة ذليلة من الحكام ، وإزاء إصرار من الفلاحين واستبداد من الإقطاع .

فقد كشفت حروب الأفيون فى الصين – إلى جانب طبيعة الاستعمار البشعة – موقف القوى الاجتماعية المختلفة من قضية الكفاح الوطنى ، كيف ينحاز الإقطاعيون والرجعيون من أول جولة إلى جانب الاستعمار ، وكيف تواصل جماهير الشعب فى القرى والمدن الكفاح حتى النصر .

وكشفت حروب الأفيون أيضاً وحدة النضال ضد الرجعية والاستعمار ، فعندما يناضل الشعب الاستعماريين وحدهم يطعنه الرجعيون من الخلف ، وعندما يناضل الرجعيين وحدهم يهاجمه الاستعماريون من الخارج ، ولكنه عندما يحقق وحدة النضال ضد الخطرين معاً يحرز النصر الأكيد ، فإذا لم يستطع حماية هذا النصر يسلب منه فى لمح البصر .

ونحن نحمد الله على أننا نخوض معركتنا الحاسمة ضد الاستعمار والصهيونية وجبهتنا الداخلية متماسكة فليس بين صفوفنا طبقات خائنة كما كان الأمر بالنسبة للصين ، ويرجع ذلك إلى أننا قطعنا شوطاً كبيراً فى ثورتنا الاجتماعية قبل أن نواجه هذه المعركة الفاصلة ، أما الشعب الصينى فى القرن الماضى فقد اضطر إلى مواجهة الخطرين معاً وأن يخوض معركته الطويلة المريرة ضد الخطر الخارجى والخطر الداخلى .

غير أن أكبر درس نستخلصه من حرب الأفيون ، ومن جميع الحروب الشعبية ضد الاستعمار ، هو أن النصر يكتب حتما للشعوب المكافحة المناضلة التى لا تيأس مهما كانت إمكانيتها تبدو ضئيلة بالمقارنة بإمكانيات العدو ، لأن الاستعمار يعتمد على أسلوب المباغتة واقتناص النصر السريع ليفرض شروطه ويحقق مصالحه ، ولكنه ينحسر حتما وتتبدد قواه إذا جوبه بكفاح شعبى طويل النفس لا يتركه مستقراً على شبر من الأرض المغتصبة .

وأكبر مثال على ذلك كفاح الشعب الصينى ضد المستعمرين البريطانيين والأمريكيين فى الماضى ، وكفاح الشعب الفيتنامى ضد الإمبرياليين الأمريكيين فى الوقت الحاضر ، وها هى ذى شعوب الأمة العربية تضرب مثلا آخر فى كفاح الشعوب الذى لا يقهر ضد الاستبداد والاستعمار مهما بدا البون الحضارى شاسعاً ومهما كان العدوان ضارياً .

وهذا الكتاب يقدم بتواضع قصة انتصار شعب عظيم أصر على انتزاع النصر العظيم . . .

محمد العزب موسى

حرب الأفيون

١ ـ السباق إلى الصين

لم يكن الإمبراطور شن شى هوانج موحد الصين وبانى سورها العظيم يدرى أن الخطر الذى سوف يهدد بلاده لن يأتى من القارة وإنما سوف يأتى من البحر !

كان الإمبراطور هوانج ـ وقد عاش قرابة انتهاء القرن الثالث قبل الميلاد ـ يعتقد أن البرابرة الذين يسكنون أواسط آسيا وشمالها هم الذين يهددون شعب الصين وحضارة الصين ، ولم يكن يطوف بخلده أن ثمة « برابرة » آخرين سوف يأتون من بلاد بعيدة وراء المحيط المظلم الشاسع ليعيثوا فى الأرض فساداً ، ويذيقوا إمبراطورية السماء أكبر هوان فى تاريخها الطويل . .

وللإمبراطور القديم عذره فى هذا الخطأ ، إذ كان عليه أن ينتظر زهاء ألفى عام حتى عصر النهضة الأوربية ليرى طلائع ذلك الخطر القادم من وراء البحار ، بل إن الصينيين أنفسهم الذين عاشوا فى تلك الحقبة وشهدوا لأول مرة سحنة الأوربى الأبيض ، لم يدركوا مدى الخطر الذى يمكن أن تحمله إليهم تلك المراكب التجارية ذات الأشرعة العريضة التى تظهر أحياناً

على خط الأفق البعيد ، وتقترب فى حذر من الشاطئ ، لتلتمس فى تواضع ورجاء أن يسمح لها بالبيع والشراء .

ولم تكن بكين العاصمة تفتح أبوابها إلا نادراً للبعثات الدبلوماسية التى تأتى بين حين وآخر حاملة الهدايا ورسائل الود إلى الأعتاب الإمبراطورية ، بل كانت معظم هذه البعثات ترد خائبة ، وفى القليل النادر يتكرم الإمبرطور باستقبالها فى بلاطه حيث يقدم رؤساؤها ، بكل تبجيل وتوقير ، ما يحملونه من الهدايا . . وهم راكعون .

كانت الصين حينئذ دولة شرقية قوية مجيدة ، يبلغ تعدادها عشرات الملايين ، وتبسط ظلال نفوذها على كل سواحل آسيا الشرقية وجزر المحيط ، وتقف على قمة تراث هائل من الثقافة والحضارة ، فقد أهدت البشرية فى كل العصور نخبة من أعظم السياسيين والفلاسفة والمفكرين والشعراء وقادة المعارك ، وضربت بسهم وافر فى أسباب الرفاهية المادية بفضل الاختراعات العلمية المدهشة التى سبقت بها العالم ، إذ اخترع الصينيون الأقدمون الورق والحرير والبارود والخزف والطباعة ، كما اخترعوا البوصلة والدفة وأجهزة الكشف عن الزلازل وأوراق النقد !

وكان الذين يزورون الصين من الرحالة الأوربيين أو العرب

فى القرون الوسطى يعودون ليتحدثوا فى انبهار وإعجاب عن تلك البلاد الرائعة وذلك الشعب العظيم الذى تؤكد أساطيره أنه هبط من القمر .

* * *

شىء واحد كان بمثابة نقطة ضعف قاتل فى صرح الصين ، ذلك هو الركود الاجتماعى الذى لم تستطع أن تتغلب عليه منذ أقدم مراحل تاريخها . فمنذ آلاف السنين عرفت الصين نظام الإقطاع ولم تستطع التخلص منه أبداً حتى انبثقت الصين الثورية الجديدة ، لقد تطور المجتمع الصينى القديم من الشيوعية البدائية إلى العبودية إلى الإقطاع .، وتكونت الدولة والإمبراطورية قبل ميلاد المسيح ، ثم جمدت الصين فى هذه المرحلة لا تتقدم خطوة واحدة ، فلم تستطع الانتقال إلى النظام التجارى الرأسمالى المعادى للإقطاع كما حدث فى أوربا الغربية ، بل كانت تتعاقب عليها الأسر والقرون وتقوم فيها ثورات الفلاحين ثم تعود الأحوال إلى ما كانت عليه دون أن تبرز علاقات إنتاجية جديدة تنتقل بالمجتمع الصينى إلى مرحلة أكثر تقدماً .

والسبب فى ذلك الركود يعود إلى الاقتصاد الصينى القائم على

الاستهلاك المباشر والمبادلات البسيطة ، فلم يكن هناك سوق وطنى عام للإنتاج والتبادل ، بل كان الفلاحون الصينيون فى كل عصور تاريخهم ينتجون من المواد الغذائية ما يستهلكونه فحسب أو ما يتبادلونه على أضيق نطاق، وأكثر من ذلك كانوا ينتجون ما يحتاجون إليه من الصناعات اليدوية كالنسيج والأثاث والسلال ، فلم يكونوا فى حاجة إلى الاعتماد على المدن الكبرى وسبل المدنية المعقدة ، وكذلك كان النبلاء والسادة الإقطاعيون ينفقون معظم دخلهم من ريع الأرض محلياً ولا يستغلونه فى مشروعات إنتاجية واسعة النطاق ، ونتيجة لذلك لم تنشأ طبقة التجار إلا فى أضيق نطاق ولم تلعب أى دور حاسم فى تاريخ الصين ، فالتجارة تقوم على المبادلة والوساطة — ولكن التبادل والوساطة لم يحتلا مكاناً أساسياً فى المجتمع الصينى فى أى عصر من العصور .

كان هذا الركود الاجتماعى هو نقطة الضعف التى نفذ منها الاستعمار الغربى إلى الصين ، فسرعان ما تقوض المجتمع الإقطاعى الصينى تحت معاول رأس المال الأجنبى المستغل ، وتحولت الصين إلى دولة شبه إقطاعية وشبه مستعمرة ، ولم تلبث أن انهارت الإمبراطورية العتيقة من الداخل . . لم يهاجمها

برابرة أواسط آسيا الذين أقيم سور الصين العظيم اتقاء لشرهم وإنما هاجمها التجار البيض الذين جاءوا من بلاد بعيدة ومن ورائهم قوة بلادهم العسكرية وأطماعها الاستعمارية فى السوق الصينى الكبير .

* * *

ترجع أول مواجهة بين الصين وأوربا إلى الربع الأول من القرن السادس عشر حين وصلت ميناء كانتون بعثة برتغالية برئاسة توماس بيريز وكان يحمل رسالة من ملك البرتغال إلى إمبراطور الصين يلتمس فيها تبادل التجارة بين الدولتين . وكان البرتغاليون فى ذلك العهد هم سادة البحار الشرقية ويدعون لأنفسهم حق احتكار الملاحة فى تلك البحار . وكانت السفن البرتغالية تخرج من جزر سيلان وملقا لتصادر شحنات السفن الأخرى التى لا تحصل على إذن بالاتجار من السلطات البرتغالية ، وتناهى إلى أسماع البرتغاليين ما تتمتع به الصين من خيرات وثراء ، وتاقت نفوسهم إلى احتكار تجارتها الخارجية كما يفعلون مع الملايو وجزر المحيط ، فأوفدوا تلك البعثة التى تحمل رسالة ملك البرتغال لتمهيد الطريق وجس النبض .

أما الصين فكان يحكمها فى ذلك الوقت الإمبراطور

« كانج تى » من أسرة « منج » العظيمة التى بسطت نفوذها على كوريا وبورما واليابان وكانت تتمتع بحقوق الدول العظمى فى سيام وجاوة وسومطرة والملايو ، كانت الصين حينئذ فى قمة المجد والنظام ، ولم تكن تستشعر أية كراهية أو خوف تجاه الأجانب ، وسمح الإمبراطور « كانج تى » للسفير البرتغالى بالتقدم إلى بكين ، ولكن قبل أن يمثل السفير بين يدى الإمبراطور وصلت البلاط الإمبراطورى رسائل من حكام جزر الملايو تكشف غدر البرتغاليين وما يضمرونه من السيطرة والاستغلال ، وحدث أن قامت إحدى السفن البرتغالية ببعض أعمال القرصنة على الشاطئ الصينى ، فغضب الإمبراطور كانج تى ورفض مقابلة السفير البرتغالى ، وأمر به فأعيد إلى كانتون حيث مات فى أحد سجونها عام ١٥٢٣ .

ورفض أباطرة الصين بعد ذلك وطوال قرنين من الزمان استقبال أية بعثة برتغالية أخرى ، أو تبادل أية علاقات تجارية أو دبلوماسية مع البرتغال ، ولكن حدث أن تلقى أمير بحر صينى بعض المساعدة من سفينة برتغالية أثناء مطاردة للقراصنة على ساحل الصين ، فسمحت السلطات الصينية — اعترافاً منها بالجميل — للبرتغاليين باستئجار شبه جزيرة مهجورة على

الساحل الصينى تسمى « ماكاو » فى عام ١٥٥٧ لاتخاذها قاعدة تجارية لهم ، وظل البرتغاليون يدفعون إيجار تلك القاعدة بانتظام حتى عام ١٨٤٩ أى طوال ثلثمائة عام . ويعترفون بسيادة الصين على ما كاو وبسلطتها المدنية والجنائية .

وأتى الأسبان بعد البرتغاليين يحاولون خطب ود الصين ، وتبادلوا التجارة مع السفن الصينية فى أرخبيل الفلبين كما سمح لهم بالتجارة فى ميناء كانتون ، ولكن حظهم لم يكن أحسن حالا من سابقيهم ، إذ رفض أباطرة الصين أيضاً أن يتبادلوا معهم أية علاقات على مستوى الدولتين .

ولم يلبث أن دخل الهولنديون حلبة المنافسة على الصين ، وكان القرن السابع عشر قد أشرق على ازدياد قوة الهولنديين فى أعالى البحار فتمكنوا من طرد البرتغاليين من أمبونيا فى عام ١٦٠٥ وحلوا مكانهم فى جزر أندونيسيا وجاوة ، وحاولت عمارة هولندية طرد البرتغاليين من ماكاو فى عام ١٦٦٢ ولكنها فشلت فى ذلك وقنعت باحتلال جزيرة تايوان (فورموزا) التى لم تكن حينئذ قد أصبحت أرضاً صينية بعد ، ونجح الهولنديون أكثر من غيرهم فى كسب ود الصين ، فقد تخلصت الصين فى ذلك الوقت من حكم أسرة منج الفاسد ، وجلس على عرشها

حاكم جديد هو « نور ها تشى » مؤسس أسرة المانشو ، وهم عشائر قبلية كانت تعيش على الحدود الغربية للصين ، وانتهزت تلك العشائر بقيادة « نور ها تشى » فرصة ضعف أسرة المنج ووقوعها تحت سيطرة الطواشى والخصيان ومحظيات القصر ، واندلاع الثورات فى أطرافها ، ثم سقوط العاصمة نفسها فى يد أحد المتمردين ، وأغارت على البلاد مؤسسة أسرة المانشو التى استطاعت إعادة مجد الصين وتوحيد أطرافها وعاصرت اشتداد الضغط الأجنبي والتدخل الأوربى ، واستمرت فى الحكم حتى سقوط النظام الملكى فى عام ١٩١١ .

ولما كان حكام المانشو قد حصلوا أثناء سعيهم لتوطيد حكمهم على بعض المساعدة الهولندية ، وخاصة فى تايوان ، لذلك نشأت علاقة يشوبها الود بين أباطرة المانشو والأجانب الهولنديين ، وقد حاول هؤلاء استغلال خدماتهم إلى أقصى حد لإنشاء علاقات دبلوماسية مع أسرة المانشو ، وأوفدوا كثيراً من البعثات إلى البلاط الإمبراطورى عسى أن يتكرم الإمبراطور باستقبالها ، ونجحت بعض هذه البعثات بالفعل في السجود أمام العرش الخالى من صاحبه ، وهو شرف كبير لم يحظ به معظم الأجانب من قبل ، وأخيراً سمح للهولنديين بإرسال قافلة تجارية مكونة من أربع سفن تحمل بضائع إلى الصين مرة كل ثمانى سنوات ، ولكن البلاط الإمبراطورى رفض جزئياً



على عادته التقليدية إنشاء علاقات دبلوماسية مع الهولنديين .

ومن بين الأجانب جميعاً الذين اعترضوا حياة الصين كان الإنجليز أكثرهم صلفاً وخسة وقسوة ، وقد دخل الإنجليز ميدان السباق الاستعماري على أسواق الصين فى وقت متأخر ، يعود إلى منتصف القرن السابع عشر بعد أن كان البرتغاليون والأسبان والهولنديون قد نجحوا فى إنشاء علاقات تجارية محدودة مع الصين ، ولكن الإنجليز لم يسلكوا منذ البداية سلوكاً شريفاً يليق بالتجار ، بل لجأوا إلى أساليب القرصنة السافرة ، وقد حاولوا فى أول الأمر اقتحام بحار الصين بالاتفاق مع الهولنديين رغم العداوة بين شركتى الهند البريطانية والهولندية إذ تمكنت الشركتان من تسوية خلافاتهما مؤقتاً على حساب الصين ووقعت اتفاقاً ينظم احتكار التجارة الصينية فيما بينهما ، ولكن الهولنديين لم يلبثوا أن نكثوا بالاتفاق وعملوا على الاستئثار بتجارة الصين وحدهم ، فحاول الإنجليز أن يولوا وجوههم شطر البرتغاليين ظنًّا منهم أنهم أصدقاء الإمبراطور ، ولكن العمارة البريطانية التى وصلت ميناء ماكاو حاملة خطاب توصية من حاكم جوا البرتغالى فوجئت بتفاهة شأن من لجأت إليهم وعجزهم التام عن التوسط لدى السلطات الصينية ، وأبى الإنجليز العودة بخفى حنين فاقتحموا

نهر كانتون بسفنهم المسلحة فى محاولة لشق طريقهم بالقوة إلى الداخل ، ولكن الأسطول الصينى تصدى لهم ومنعهم من الدخول فاكتفوا بالقيام ببعض أعمال النهب والقرصنة على الشاطئ الصينى .

وهكذا كانت أول مواجهة بين بريطانيا والصين لا توحى بالخير ، ولكن ذلك لم يحل على أية حال دون أن تحصل شركة الهند الشرقية على فرع لها فى كانتون عام ١٦٨٥ أسوة بالبعثات التجارية الأجنبية الأخرى التى سمح لها الصينيون بمزاولة نشاطها فى ذلك الميناء .

وبعد ذلك بقرن من الزمان أى فى عام ١٧٨٤ أرسلت الولايات المتحدة — وكانت قد حصلت أخيراً على استقلالها وأصبحت دولة ذات سيادة — أولى سفنها التجارية إلى ميناء كانتون ، وأخذت تجارتها مع الصين تزداد سريعاً حتى فاقت فرنسا وغيرها من الدول الأوربية ولكنها لم تلحق ببريطانيا .

أما روسيا القيصرية فقد كانت فى ذلك الوقت تتبادل التجارة مع الصين على طول حدودها الشمالية . وفى عام ١٨٠٥ تقدمت روسيا بطلب إلى حكومة المانشو لمنحها امتيازات مماثلة لامتيازات الدول الأوربية ولكن طلبها قوبل بالرفض .

كانت مياه المحيط الهادى تشهد فى تلك الفترة سباقاً هائلا بين الدول الأوربية على استعمار شرق آسيا والاستئثار بكنوز الشرق وثرواته . فالرأسمالية الأوربية الوليدة قد دخلت الآن طورها التجارى بعد مرحلة الكشوف البحرية العالمية واستكشاف الطرق الملاحية الجديدة التى تربط الشرق بالغرب ، وبدأ أبناء الرحالة العظام ينهبون ثروات العالم القديم المكتشف تحت ستار التجارة وتهديد السلاح ، فلم تكن العلاقات التجارية والدبلوماسية فى واقع الأمر سوى ستر واه يكاد لا يخفى إصرار الدول الأوربية على التوسع والعدوان ، وكانت العلاقات بين الدول الأوربية نفسها سداها الحقد والأطماع ، فكل منها تتربص بالأخرى وتسعى إلى إحاقة الهزيمة بها لتحل محلها فى مناطق نفوذها وراء البحار ، فأحياناً يدور الصراع على المسرح السياسى والعسكرى فى أوربا وتنعكس آثاره على مراكز الدول المتصارعة فى الشرق البعيد ، وأحياناً يحتدم الصراع مباشرة بين الأساطيل والنفوذ التجارى والعسكرى فى الخارج ويأفل بالتالى نجم الدولة المهزومة فى سماء السياسة الأوربية . كانت الرأسمالية التجارية الوليدة تكشف حينئذ عن أسوأ ما فيها فى الداخل والخارج

ولكنها كانت حريصة فى نفس الوقت على هدفها المشترك وهو نهب خيرات الشعوب . فما إن يظهر ظرف من شأنه أن يهدد مصالح الاستغلال الأوربى فى منطقة ما حتى تتضافر القوى المتنازعة لإزالة الخطر رغم ما بينها من متناقضات ، وهذا ما حدث بالضبط فى مسألة التجارة مع الصين ، فقد تكاتفت الدول الأوربية جميعاً لإيجاد ثغرة تنفذ منها إلى أسواق الصين ، وأخيراً وجدت بغيتها عندما سمح الصينيون بفتح ميناء كانتون للتجارة مع الأجانب .

* * *

أما حكام الصين فكانوا ينظرون إلى التجارة باعتبارها حرفة وضيعة لا تستحق اهتمام الحكومة ، فنجد أحد المراسيم الصينية يقول : « إن إمبراطورية السماء تعين الموظفين المدنيين لحكم الناس ، وتعين القادة العسكريين ليرهبوا الجناة والأشرار ، أما الشئون التافهة المتصلة بالتجارة فهى من اختصاص التجار أنفسهم ، ولا يجوز للموظفين أن يستمعوا إلى أى شكوى تتعلق بذلك الموضوع » .

وكانت تتولى التجارة مع الأجانب فى كانتون هيئة خاصة من التجار الصينيين تعرف باسم « الهونج » ، وهذه الهيئة تمثل

الحكومة الصينية وتعمل كوكيل لها ، ولا يسمح للأهالى أو التجار العاديين بالتعامل رأساً مع الأجانب ، وكذلك يحظر على الشركات الأجنبية الاتصال بأى تاجر أو شخص لا ينتمى إلى نقابة الهونج وإلا غامرت بفقدان مركزها وامتيازاتها . ولكن تجار الهونج لا يتمتعون بسلطتهم دون قيد ، وإنما يباشرونها فى الواقع تحت رقابة محكمة من موظف حكومى كبير يقيم فى كانتون ويمثل الإمبراطور شخصياً ويعرف باسم « الهوبو » ، واختصاصه الإشراف على عقد الاتفاقات التجارية مع الشركات الأجنبية ، وفرض الرسوم الجمركية على الواردات ومراقبة حركة الصادرات .

وكان الأجانب فى كانتون مقيدين تماماً بحدود مهنتهم ، وهى التجارة مع نقابة الهونج ، ولا يسمح لهم بالقيام بأى نشاط آخر ، لقد كانوا أشبه بالسجناء منهم بالتجار فهم موضوعون تحت رقابة صارمة لا يستطيعون منها فكاكاً ، فلا يسمح لهم بالخروج من حيهم الخاص والاختلاط بالأهالى ، أو التجديف فى النهر ، والنزهة فى الحدائق العامة إلا بصحبة موظف صينى صغير ، كما حظر عليهم اصطحاب زوجاتهم إلى كانتون حتى لا تنشأ هناك جالية أجنبية كبيرة العدد ، وحتى خطاباتهم

ومراسلاتهم التجارية يجب أن تمر على رقابة الهوبو !

هكذا كانت إمبراطورية السماء تفرض على نفسها عزلة قاسية ، ولا تكاد تخفى مخاوفها واحتقارها للأجانب ، وكانت لها مبرراتها فى الواقع ، ففى كل يوم تصل إلى إمبراطور الصين وكبار موظفيه أنباء الجرائم التى يرتكبها البيض فى بحار الجنوب ، وكيف أنهم يتسللون إلى الممالك الآمنة بحجة التجارة وهم يضمرون التوسع والعدوان ، وكيف أنهم ينكثون بوعودهم ، ويغشون فى معاملاتهم ، ولا يصدقون فى أقوالهم ، وكثيراً مايسطون كالقراصنة على السفن والمسافرين . ويهاجمون المدن والقرى الآمنة ببنادقهم ومدافعهم التى تحصد الناس حصداً ، ويقيمون لأنفسهم القلاع غصباً ، وينهبون ما تقع عليه أيديهم ، وما إن يحلوا فى مكان حتى يأتى فى أعقابهم الخراب والدمار ، ويعم الفقر والجوع ، وترتفع الأسعار وتنهار القيم والأخلاق .

لكل ذلك كان أباطرة المانشو المتعاقبون حريصين أشد الحرص على عزلتهم الإرادية ، وعدم فتح أبواب بلادهم لرسل أولئك الشياطين . فقد علمتهم دروس التاريخ أن الخطر الخارجى يرتبط دائماً بالمتاعب الداخلية ، ألم يتمكنوا هم أنفسهم من فرض سيطرتهم على البلاد حين ملأتها الفتن والثورات

فى أواخر عهد أسرة منج ؟ فلا غرو إذن أن يكون همهم الأكبر حماية أنفسهم من أية قوة أجنبية جديدة سواء كان مصدرها القارة أو البحر لا سيما وقد بدءوا يواجهون بدورهم متاعب داخلية لا تكاد تنقطع .

ولم تكن الصين ، فى واقع الأمر ، فى حاجة إلى البضائع الأجنبية ، فباستثناء بعض الكماليات البسيطة التى يتهافت عليها السادة الإقطاعيون مثل الفراء والعقاقير الطبية وأنواع من المأكولات لم تكن الصين تستورد أى شىء ، ولكنها — وهذه هى المأساة — كانت تصدر قائمة كبيرة من السلع الرائعة التى يسيل لها لعاب الأجانب كالشاى الصينى اللذيذ ، والحرير الطبيعى الشهير ، والمنسوجات القطنية الفاخرة ، والتحف الخزفية البديعة .

ولذلك أصر الأجانب على التجارة مع الصين ، يحدوهم الشوق إلى خيراتها الوفيرة ، وأسواقها الهائلة التى تضم أكثر من ثلثمائة مليون مستهلك ، فاندفعوا فى سباقهم إلى الصين لا يلوون على شىء ، ولا يفت فى عضدهم شىء ، رغم كل العقبات والإهانات . . فهناك على أفق تلك المتاعب جميعاً تلوح واحة الصين الوارفة كجنة تهفو إليها الأفئدة ، ويلهب جمالها الخيال .

٢ ــ أطماع الإنجليز

كان حى الأجانب فى كانتون يحتل ضاحية فى أطراف المدينة خصصت لهم وحدهم فلا يجوز لأحد أن يدخلها إلا بإذن خاص ولدواعى العمل ، والحى فى حد ذاته يضم مجموعة من المبانى المتقاربة تحتلها التوكيلات والشركات التجارية الأجنبية وينبسط أمامها فضاء فسيح يعزلها عن أحياء الوطنيين .

وتحتل الوكالة الإنجليزية أكبر هذه المبانى وأكثرها فخامة وأبهة ، فمبنى الوكالة أشبه بقصر منيف يحيط به سور شاهق ، وللسور بوابة ضخمة تؤدى إلى طريق مرصوف ينتهى إلى سلاملك القصر ، فإذا صعد الزائر تلك الدرجات العراض يجد نفسه فى شرفة فسيحة تطل عليها مجموعة من القاعات الكبرى . . فهذه قاعة المكتبة ، وتلك قاعة الاستقبال ، وأخرى قاعة المائدة ، ورابعة قاعة المرقص ، وجميعها تكتظ بالأثاث الأنيق والشمعدانات الفضية والثريات البللورية والطنافس الثمينة . وفى الدور الثانى من المبنى توجد مكاتب الموظفين ومساكنهم .

وكانت الوكالة الإنجليزية لا تبخل على ضيوفها وموظفيها

بكل ألوان الفخامة والترف ، فهى تقيم لهم الحفلات والولائم حيث تسيل أجود الخمور وتنقضى أجمل الساعات ، فلم تكن الشركة فى الواقع مجرد وكالة تجارية وإنما هى أشبه ما تكون بسفارة إحدى الدول الكبرى .

وكان مظهر الوكالة الإنجليزية يمثل بالفعل حقيقة نشاطها ، فقد تزايد نصيب بريطانيا فى تجارة الصين تزايداً مذهلا ، وما إن أشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى كانت شركة الهند الشرقية تكاد تحتكر كل تجارة الصين بينما تضاءلت أنصبة الشركات الأخرى إلى حد كبير . فكانت كل الشركات الأخرى تستثمر مجتمعة ما يقل عن جزء من سبعة من رءوس الأموال التى تستثمرها الشركة الإنجليزية فى كانتون ، وقيل إن كل ورقة من الشاى تنتجها مقاطعة فوكين كانت تعرض أولا على الشركة الإنجليزية قبل أن يتصرف فيها تجار الهونج بالبيع إلى أية شركة أخرى ، فقد أصبح الشاى فى ذلك الوقت مشروباً قومياً فى بريطانيا يشتد عليه طلب المستهلكين .

ولم تكن الوكالة الإنجليزية فى كانتون سوى فرع لشركة الهند الشرقية التى عم صيتها الآفاق ، فهى التى تتولى استغلال الهند بل آسيا كلها لحساب الاستعمار البريطانى ، وكانت

مؤسسة أسطورية أشبه بدولة داخل الدولة أو إمبراطوية احتكارية للتجارة العالمية ، فتحت إمرتها جيش خاص مزود بأحدث الأسلحة تستخدمه فى تنفيذ مآربها دون رقابة أو إشراف ، وهى معفاة من الضرائب فى الهند وبريطانيا ، وتستطيع أن تفرض إرادتها على حكومة لندن ذاتها ، وأصبحت باختصار من أكبر القوى المؤثرة فى تاريخ آسيا ومصائر شعوبها .

وقد بدأت شركة الهند الشرقية بداية متواضعة ، فكانت تملك عدة مراكز تجارية بسيطة فى أطراف الهند ، ثم استطاعت الحصول فى عام ١٧١٥ على فرمان من إمبراطور المغول بإعفائها من الضرائب والخضوع للقضاء المحلى ، وسرعان ما جعلت من هذا الفرمان الذى حصلت عليه بالرشوة والضغط تكئة لنفوذها وقوتها المتزايدة حتى انتهت إلى غزو الهند وإخضاعها تماماً لسيطرتها .

وقصة فتح الهند أشبه بالخيال ، وهى صفحة من أكثر الصفحات سواداً فى سجل الاستعمار ، فقد استخدمت بريطانيا عن طريق شركة الهند الشرقية أحط أساليب التآمر والقسوة والغش والرشوة والخداع لإخضاع الولايات الهندية وتكبيلها بالقيود ، وتبدأ القصة بغزو البنغال فى عام ١٧٥٦ بحجة

الانتقام لمصرع ١٢٦ جندياً بريطانياً وقعوا فى أسر الهنود وماتوا اختناقاً فى سجن رهيب ضيق يسمى « بلاك هول » . فاستغلت شركة الهند الشرقية هذا الحادث واستطاعت أن تجند الرأى العام فى بريطانيا حكومة وبرلماناً وشعباً لغزو الهند وتأديب سكانها المتوحشين ، وهكذا بدأت سلسلة من المؤامرات السياسية والمعارك العسكرية انتهت باحتلال الهند والقضاء على سيادتها واستقلالها .

وقام الحكم البريطانى فى الهند على كل ما هو دنىء وسيئ من رذائل البشر . . على الغدر والعنف والخيانة والجشع ، ووطد أركانه ببث الفرقة والانقسام بين طبقات الهند وطوائفها عملا بالمبدأ الاستعمارى الشهير « فرق تسد » ، ثم بدأ يستنزف اقتصاديات الهند دون عدل أو رحمة .

فقبل غزو الهند كانت شركة الهند الشرقية تشترى البضائع الهندية مقابل الدفع بالفضة والذهب، ولكن بعد الغزو قامت الشركة بعملية نهب منظمة لثروات الهند وتحويلها إلى بريطانيا دون مقابل ، فقد حصل البريطانيون أولا على غرامة باهظة من شعب الهند فى صورة سبائك فضية وذهبية تفوق كل ما دفعوه من قبل ثمناً للبضائع الهندية ، ويقال إن هذه الغرامة احتواها

٧٠٠ صندوق كبير حملها ١٠٠ قارب إلى مخازن شركة الهند الشرقية ومراكبها، ومع ذلك لم تكن هذه الغرامة الخرافية سوى أول الغيث الذى بدأ ينهمر على المغامرين الإنجليز ، فقد امتنعت الشركة طوال تاريخها التالى عن دفع بنس واحد مقابل ما تشتريه من بضائع الهند ، ولتمويل عمليات الشراء من النساجين الهنود حتى لا يموتوا جوعاً ويتوقفوا بالتالى عن الإنتاج فرضت الشركة ضرائب باهظة على الشعب الهندى ، وهكذا كانت الهند تدفع ثمن مبيعاتها إلى بريطانيا !

وأقامت بريطانيا فى الهند حكومة من اللصوص كل همها تنظيم عمليات الابتزاز المستمرة لشعب الهند وثرواته ، ويقدر أحد المؤرخين ما حصلت عليه بريطانيا من الهند فى فترة عشر سنوات بين عامى ١٧٨٣ و ١٧٩٣ بأكثر من ٢٣ مليون جنيه (مع مراعاة أن قيمة النقد فى ذلك الوقت تبلغ أكثر من عشرة أضعاف قيمته الحالية) وذلك مقابل ذهب ثمنه لا يتجاوز ٧٢١ ألف جنيه . ويقول مؤرخ آخر إن السفينة بارينجتون التى أقلت سير وارين هستينجز حاكم الهند العام إلى لندن عام ١٧٨٥ كانت تحمل بضائع هندية قيمتها الدنيا ١٢٠ ألف جنيه وعادت ببضائع بريطانية قيمتها القصوى ٢٧ ألف جنيه .

وتكررت هذه الأمثلة طوال تاريخ الاستغلال الاستعمارى للهند .

وكانت البضائع التى ترسلها شركة الهند الشرقية إلى بريطانيا تباع فى المزاد العلنى ، وتذهب قيمتها خالصة بعد خصم مصاريف النقل والبيع إلى ميزانية الحكومة البريطانية وجيوب كبار موظفى الحكومة والشركة ، بينما لا يكاد يحصل صغار المساهمين على شىء ، وهذا ما جعل الذمة المالية للشركة فى حالة عجز مستمر رغم دخلها الهائل مما أدى إلى إعلان إفلاسها فيما بعد !

وساهمت هذه الثروات التى تدفقت على بريطانيا فى قيام ثورتها الصناعية فى أوائل القرن التاسع عشر ، إذ أنفقت هذه الأموال فى بناء المصانع واستخدام البخار ، وبذلك سبقت بريطانيا جميع الدول الأوربية الأخرى فى إنجاز الثورة الصناعية التى نقلتها إلى مرحلة جديدة من القوة والتفوق . أما الهند فقد كان نصيبها الفقر والانهيار نتيجة هذه العلاقة غير المتكافئة بين القوى والضعيف ، وبلغ من طغيان المستعمرين الإنجليز أن فرضوا ضريبة ثقيلة على استهلاك الملح الذى لا غنى عنه لأفقر الهنود . وعندما أخذت مصانع مانشستر الحديثة

فى إنتاج المنسوجات الآلية الرخيصة الثمن غزا بها الإنجليز أسواق الهند التى تضم مئات الملايين من المستهلكين مما أدى إلى تدمير صناعة النسج اليدوية المحلية وهلاك مئات الألوف من النساجين الهنود الذين توارثوا هذه الحرفة عن آبائهم « وأصبحت عظامهم تجعل سهول الهند تبدو بيضاء » على حد تعبير أحد حكام الهند الإنجليز .

* * *

وما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى كانت بريطانيا قد احتلت مكان الصدارة على المسرح الدولى بفضل الانقلاب الصناعى والتوسع الخارجى ، وتقهقرت الدول الاستعمارية التقليدية الأخرى عن اللحاق بها ، إذ قنع البرتغاليون بممتلكاتهم الصغيرة المتناثرة فى أنحاء آسيا وأفريقيا ، وانزوت أسبانيا فى أرخبيل الفلبين وتوقفت عن المشاركة فى التطورات الآسيوية ، وقنعت هولندا بالجزر الأندونيسية بعد أن طردتها بريطانيا من سيلان وكادت أن تفقد جميع مستعمراتها فى حروب نابليون ، وخرجت فرنسا متهالكة من ثورتها الكبرى ومغامراتها النابليونية ، ولم تكن الولايات المتحدة قد استكملت توسعها نحو الغرب وأقفلت أبوابها على نفسها قانعة بأراضيها البكر ونفوذها فى أمريكا

اللاتينية بحكم مبدأ مونرو ، وكانت إمبراطورية النمسا والمجر مستغرقة فى منازعاتها الأوربية والمحافظة على كيانها المترنح أمام ضربات الحركات القومية فى أوربا ، أما ألمانيا وإيطاليا فلم تكونا قد استكملتا مقومات وحدتهما بعد وانحصر همهما فى مشاكلهما القومية .

أما بريطانيا فكانت الدولة الوحيدة فى العالم التى خلت من المشكلات الداخلية المعقدة ، وأتاح لها استقرارها السياسى وثورتها الصناعية مركزاً متيناً جعلها توجه نشاطها إلى التوسع فى الخارج بعد انتصارها على عدوها اللدود نابليون وتأكيدها المطلق لسيادتها على البحار ، فكانت السفن الحربية البريطانية كفيلة بإيقاع الرعب فى قلب كل من تسول له نفسه مقاومة النفوذ البريطانى ، وأتاح لها فتح الهند فرصة فريدة لدعم قوتها ونفوذها ، فأخذت تؤمن طرقها البحرية إلى الهند وتثبت أقدامها فى منطقة جنوب شرقى آسيا باحتلال سنغافورة وبورما وسيلان ، ولم يزدها هذا التوسع سوى الرغبة فى المزيد وتضاعفت شهيتها للسلب والابتزاز .

بهذه الأطماع بدأت بريطانيا تنظر إلى الصين فى توسعها شمالا بعد أن دانت لها الهند وكل أرجاء المنطقة تقريباً ، وإذا

كانت الهند جوهرة التاج البريطانى كما يقولون ، فإن الصين كانت من الممكن أن تصبح جوهرة مماثلة بل حتى أكبر حجماً وأشد لمعاناً ، ولكن الصين لم تكن أبداً باللقمة السائغة التى تستطيع بريطانيا التهامها بسهولة كما فعلت مع الهند . وكان ذلك يرجع إلى اختلافين جوهريين فى ظروف كل من هاتين الدولتين الآسيويتين اللتين تضمان معاً قرابة نصف سكان العالم .

الاختلاف الأول يكمن فى موقف كل من الصين والهند من التجارة مع الخارج ، فقد كانت الصين لا تتحمس للتجارة مع الأجانب بل كان أباطرتها يعتبرون المسائل التجارية لا تليق بمركزها السامى إلى جانب أن الصين لم تكن فى الواقع فى حاجة ماسة إلى البضائع الأجنبية . أما الهند فكانت على العكس من ذلك حريصة على التجارة الخارجية ، وكان أقيال الهند ومهراجاتها يشجعون الاتصال بالأجانب ، ويمنحونهم الامتيازات والتسهيلات والمراكز التجارية فى مختلف الموانئ الهندية ، مما أتاح لهم تثبيت أقدامهم فى البلاد وتمكينهم من تنفيذ مؤامراتهم عن طريق الحرب والغدر والخداع تحت ستار التجارة ، وهو أمر لم يحظ الإنجليز أو غيرهم بمثله فى الصين ، فقد كانت سفنهم التجارية ترتطم بالشاطئ الصينى ثم ترتد

خائبة فى معظم الأحيان ، وبعد كفاح قرون لم ينجحوا إلا فى اقتحام عدد ضئيل من موانى الصين الجنوبية لم يلبث أن أغلق فى وجوههم بعد ذلك فيما عدا ميناء واحد هو كانتون ، وكانوا يخضعون فيه لرقابة صارمة تشل قدرتهم على التآمر والمناورة .

والاختلاف الثانى بين ظروف كل من الدولتين أن الصين كانت تخضع رغم نظامها الإقطاعى لسلطة مركزية قوية يمثلها الإمبراطور المهيمن على كل شىء والذى يفرض سلطانه فى كل أنحاء البلاد ، أما إمبراطورية المغول فى الهند فقد كانت ضعيفة مفككة ، وسلطة الإمبراطور فيها نظرية ومتراخية ، أما السلطة الحقيقية فكان يتمتع بها عدد لا حصر له من المهراجات والأقيال والحكام الإقليميين ، الأمر الذى أتاح للإنجليز القيام بلعبتهم المفضلة « فرق تسد » ومكنهم من تكسير عصى الهند متفرقات .

وقد حاول الإنجليز مراراً الاتصال مباشرة بإمبراطور الصين دون جدوى ، ففى كل مرة كانوا يردون خائبين يتميزون غضباً وطمعاً . .

ففى عام ١٧٨٧ اختير الكولونيل كاثكارت ليرأس أول بعثة دبلوماسية إنجليزية إلى بلاط إمبراطور الصين ، ولكنه لم يتمكن

من أداء مهمته إذ مات قبل أن تطأ قدمه أرض الصين . وعادت البعثة من حيث أقبلت .

وبعد ذلك بتسع سنوات ، أى فى عام ١٧٩٦ ، نجحت بعثة إنجليزية أخرى برئاسة لورد ماكارتنى فى الوصول إلى بكين ، وكانت بعثة ضخمة محاطة بشتى مظاهر الأبهة ، ولكن البعثة حين وصلت الصين اضطرت إلى الانصياع لأوامر السلطات الصينية بأن ترفع فى كل تحركاتها لافتة ضخمة مكتوب عليها باللغة الصينية « السفير الذى يحمل الجزية من بلاد الإنجليز » . وعندما تفضل الإمبراطور تشين لنج باستقبال لورد ماكارتنى أبى السفير السجود على الأرض واكتفى بالركوع على إحدى ركبتيه ، وأظهر الإمبراطور بشاشة وتلطفاً وهو يستمع إلى رسالة الملك جورج الثالث التى يدعوه فيها إلى تقوية العلاقات التجارية بين البلدين ، ولكن رده المهذب كان مخيباً لرجاء الإنجليز ، فقد جاء فى رد الإمبراطور تشين لنج إلى الملك جورج الثالث : « إننا نملك كل شىء ، ولا نقيم وزناً للأشياء الغريبة أو المبتكرة ، ولسنا فى حاجة إلى مصنوعات بلدكم » !

وكرر الإنجليز المحاولة فى عام ١٨١٦ ، إذ وصلت بكين بعثة أخرى برئاسة اللورد امهرست ، ولكن حظها من النجاح

كان أقل من سابقتها فقد فشلت فى المثول أمام الإمبراطور لأن اللورد امهرست رفض مقدماً وفى كبرياء وعناد أن يسجد أمام العرش . ونتيجة لذلك أعلنت حكومة بكين رسمياً أنها سترفض من حيث المبدأ استقبال أية بعثة دبلوماسية إنجليزية أخرى فى المستقبل .

وعلاوة على هذه المهانة الوطنية التى كانت تلحق بالإنجليز كلما حاولوا الاتصال بالصين كان التجار الإنجليز فى كانتون يتعرضون لسلسلة متصلة من أعمال الإذلال ، فقد كان محظوراً عليهم اصطحاب زوجاتهم معهم ، وفى عام ١٨٣٠ نشأت أزمة عنيفة بين السلطات الصينية وموظفى الوكالة الإنجليزية فى كانتون بسبب وصول بعض السيدات الإنجليزيات من ماكاو ، فأصرت السلطات على عودتهن فى الحال وإلا قطعت التجارة مع بريطانيا ، وكذلك لم يكن يسمح للموظفين والتجار الإنجليز باستخدام خدم من الصينيين أو ركوب المحفات التى تحمل على الأعناق أو حتى الاتصال مباشرة بالسلطات الصينية ، وإذا أرادوا التقدم بشكوى أو طلب أو رجاء فعليهم أن يتوجهوا إلى بوابة المدينة ويتركونه مع حارس الباب !

وكان من الطبعى أن يتميز الإنجليز غيظاً من هذه

المعاملة المهينة وهم الذين درجوا على الأمر والنهى والاعتزاز بالكرامة الوطنية ، وقد صبروا على هذه الحال فترة طويلة بسبب المكاسب الوفيرة التى يجنونها من التجارة الصينية ولكنهم أخذوا يتصيدون الفرصة للانتقام والانقضاض على الصين كالوحوش الكاسرة لا سيما وهم يشهدون مظاهر ضعفها الداخلى ، واستعدادها للوقوع بين أيديهم كالثمرة الناضجة .

* * *

وأخيراً ، سنحت الفرصة فى عام ١٨٣٤ فقد ألغت الحكومة الإنجليزية فى ذلك العام احتكار شركة الهند الشرقية للتجارة الآسيوية بعد أن ضجت الشكوى من مخازيها وفضائحها وأصبحت نهباً للصوص من كبار موظفيها والمسئولين فيها ، وعندئذ شعر نائب الإمبراطور فى كانتون بأن معاملة التجار الإنجليز قد أصبحت مشكلة معقدة لأنهم لم يعودوا خاضعين لهيئة واحدة مسئولة أمام السلطات الصينية ، ولذلك فقد طلب من نقابة الهونج الاتصال بالسلطات الإنجليزية وتكليفها بإرسال مسئول عن التجارة البريطانية إلى كانتون ليتولى رئاسة التجار الإنجليز ، ورحبت الحكومة الإنجليزية بالطبع بهذه الخطوة ترحيباً كبيراً وسارعت إلى إرسال اللورد نابيير ليتولى رئاسة المعاملات التجارية فى كانتون .

لم يكن اللورد نابيير ، ومعنى اسمه باللغة الصينية « السافل عن عمد » أكثر من رئيس لإحدى البعثات التجارية فى كانتون ، ولكنه لم يشأ أن يفهم حقيقة مركزه ، فقد كان لورداً بريطانياً قحاً شديد الجسارة والغرور والاحتقار للشعوب غير البيضاء ، وقد جاء إلى الصين تحدوه رغبة ملحة فى إذلالها وفتح أبوابها للتجارة البريطانية ، وكان لشعوره بمدى قوة بلاده وجبروتها ، يتصرف كما لو كان ممثلا لدولة احتلال أو سلطة فوق السلطات الوطنية ، ولذلك فقد رفض فور وصوله إلى كانتون التعامل مع نقابة الهونج المسئولة عن الاتصال بالأجانب ، كما رفض الاعتراف بسلطة «الهوبو» الذى ينفذ التعاليم الإمبراطورية الثمانية الخاصة بالتعامل مع الأجانب ، وأصر على أن تكون معاملاته مع التجار الخارجين عن نقابة الهونج ، ومعنى ذلك فتح أبواب الصين للتجارة البريطانية دون قيد أو شرط ، كما طلب أن تكون اتصالاته رأساً مع نائب الملك فى كوانجسى .

ورفضت السلطات الصينية هذه المطالب التى بدت لها مهينة ، وامتنع نائب الإمبراطور عن مقابلة اللورد نابيير وكلف نقابة الهونج فى القيام بمهام سلطاتها ، ولكن اللورد نابيير رفض بدوره الامتثال للسلطات الصينية مما أدى إلى نشوب أزمة

عنيفة بين الجانبين .

واستشاط اللورد نابيير غضباً وهو الذى ما جاء إلا لتأديب الصين وتذكيرها بقوة بلاده التى لا تقهر ، وكان قد أرسل عدة خطابات إلى اللورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الحين يحرضه فيها على ضرب الصين وإرغامها على فتح أبوابها بتهديد السلاح ، فكيف به الآن يواجه تلك اللطمة المهينة لكرامته الوطنية والشخصية ؟

ولقد أخطأ اللورد نابيير فى اعتقاده أن الأمر لا يتطلب أكثر من إظهار القوة والحزم حتى ترتجف الصين وتخر على قدميها أمام مطالبه ، ولذلك فقد أمر السفن الحربية الإنجليزية التى تحت رئاسته بأن تتولى حراسة سفينته وهى تشق طريقها فى النهر بالقوة ، كما كلف بحارة بريطانيين مدججين بالسلاح بحراسة مبنى الوكالة الإنجليزية ، وراح يتصرف كما لو لم يكن هناك وجود بالمرة للسلطات الصينية ، والواقع أنه لم يكن يشك لحظة فى عدم جدية اعتراضات الصين وعدم قدرتها على اتخاذ أى إجراء ضد بريطانيا العظمى ، ولكن اعتقاده كان خاطئاً تماماً ، إذ ردت السلطات على تصرفاته بأخشن منها ، فأصدرت أوامرها بعدم التعامل مع الوكالة الإنجليزية ، ومنعت الموظفين

والخدم الصينيين من العمل فيها ، وحظرت على السكان المحليين بيع المواد الغذائية للإنجليز بأى ثمن . وكذلك حظرت على التجار الأجانب التعامل معهم ، وأصبح الإنجليز فى كانتون مهددين بالموت جوعاً وعطشاً . وعندما رأى اللورد نابيير ذلك أسقط فى يده ، واضطر إلى مغادرة كانتون لائذاً بأصدقائه البرتغاليين فى ماكاو .. وهناك وبعد أسبوعين فقط مات من شدة الكمد !

ويبدو أن الإنجليز اعتبروا وفاة اللورد نابيير استشهاداً فى سبيل قضية كبرى رغم كل الأدلة على خطئه وصلفه وانتهاكه للسيادة الصينية ، وبدءوا يفكرون جدياً فى غزو الصين أو تأديبها على الأقل كى تصبح دولة مهذبة تفتح أبوابها على مصارعها أمام التجارة الحرة .

وأصبح كل ما يحتاج إليه الإنجليز لإعلان الحرب على الصين هو المبرر ، وأخيراً وجدوا المبرر فى اعتراض الصين على تجارة الأفيون .

٣ ــ التجارة المحرمة

كانت المشكلة الرئيسية التى تواجه بريطانيا فى معاملاتها

التجارية مع الصين هى كيفية إيجاد وسيلة لموازنة الميزان التجارى بين الطرفين ، وقد نشأت هذه المشكلة نتيجة لعزوف الصين عن استيراد البضائع البريطانية فى الوقت الذى تزداد فيه صادراتها إلى بريطانيا باطراد ، فقد كانت الصين تصدر إلى بريطانيا كميات كبيرة من الشاى والحرير الطبيعى والراوند والخزف وسلعاً أخرى كثيرة ولا تستورد منها سوى أقل القليل ، ولذلك كان على الإنجليز أن يدفعوا بالفضة مقابل ما يشترونه من الصين ، وكانت الفضة هى قاعدة المبادلات الدولية فى ذلك الحين .

غير أن هذا الأمر لم يرض الإنجليز ، فقد كانت الفضة أثمن لديهم من الوفاء بالتزاماتهم الدولية ، وعليها يتوقف ثراؤها وقوتهم العالمية ، فكيف يدفعونها ببساطة إلى ذلك الشعب الأصفر الضعيف ؟ وللفضة مع الإنجليز تاريخ طويل أسود يبدأ منذ اكتشاف أمريكا الجنوبية وإنشاء المستعمرات الأسبانية هناك ، فقد كان الأسبان يسخرون الهنود الحمر فى استخراج ذلك المعدن النفيس من مناجمه البكر فى العالم الجديد ، ثم يشترون بهذه الفضة عبيداً تجلبهم المراكب الإنجليزية من شاطئ أفريقيا الغربى ، وهكذا كانت الفضة فى يد الرجل الأبيض

وسيلة لاستعباد جنسين : الهنود الحمر والأفريقيين ، وسال لعاب الإنجليز لتلك السبائك الثمينة التي يستخرجها الأسبان وتختزن فى داخلها قوة اقتصادية هائلة ، ومضوا فى حماسة يواصلون تجارتهم القذرة ، يصطادون البشر السود من الساحل الأفريقى ، وينقلونهم كالحيوانات فى رحلة الرعب عبر المحيط الهادر ليقذفوا بهم إلى العبودية على الساحل الأمريكى مقابل ذلك المعدن الصافى الذى يستخلصه الأسبان من عرق الهنود الحمر ، ثم لم يلبث أن استخدموا الفضة فى استعباد جنس ثالث هو الهنود ، إذ بدأ الإنجليز يتاجرون بالفضة مع الهند قبل غزوها ، وحين رسفت فى أغلال عبوديتهم استردوا منها جميع ما سبق أن أرسلوه إليها من ذلك المعدن النفيس ، ربما باستثناء ما طهم به المهراجات مقابض خناجرهم أو وشوا به سروج أفيالهم !

وبعد أن استعاد الإنجليز الفضة من أيدى الهنود بدءوا يستخدمونها فى استغلال شعب رابع هو شعب الصين ، ولما كان الميزان التجارى فى صالح الصين دائماً لندرة ما تستورده وكثرة ما تصدره لذلك أخذت الفضة تتدفق إلى أيدى أولئك الصفر ذوى العيون المشقوقة ، وبدأ تدفقها يثير حفيظة الإنجليز وجشعهم ، ويجعلهم يقدحون زناد قرائحهم لإيجاد وسيلة يستردون بها ذلك المعدن الثمين دون أن ينقطع فى نفس الوقت

ما يحصلون عليه من كنوز الصين . . وكانت المشكلة هى كيفية العثور على سلعة يقبل عليها المستهلكون الصينيون .

وأخيراً وجد الإنجليز ضالتهم فى تلك السلعة السحرية . . الأفيون !

* * *

ويرجع « الفضل » فى هذا الاكتشاف إلى البرتغاليين فهم أول من أرسلوا شحنات الأفيون إلى الشعب الصينى فى أوائل القرن الثامن عشر ، وبالرغم من أن السلطات الصينية حرمت استيراد وتعاطى الأفيون بمرسوم إمبراطورى فى عام ١٧٢٩ إلا أن هذا المرسوم لم يكن معمولا به فى الواقع ، وبدأ الشعب الصينى يعرف طريقه إلى هذا السم البطىء ، ثم وقع الإنجليز على هذا الاكتشاف وقدروا ما ينطوى عليه من فائدة اقتصادية كبرى . وفى عام ١٧٧٣ قرر وارين هاستينجز مدير شركة الهند الشرقية أن تحتكر الشركة زراعة الأفيون فى الهند ، ويصف سير ويلز ويليامز احتكار شركة الهند الشرقية لزراعة وتجارة الأفيون قائلا : « فى كل الأقاليم التابعة للشركة يطبق نظام الاحتكار الصارم لزراعة شجيرات الأفيون وإعداده ونقله وتجهيزه إلى أن يباع فى المزاد العلنى توطئة لتصديره ، وزراعة نبات الأفيون إجبارية ، إن مساحات شاسعة من أجود الأراضى فى بينارس وبيهار وكل مكان فى الأجزاء الشمالية والوسطى من الهند مغطاة

الآن بشجيرات الأفيون ، أما المزروعات الأخرى المستخدمة فى الأكل واللبس والتى كانت تنمو منذ أزمنة سحيقة فقد قضى عليها تماماً تقريباً » .

وفى عام ١٧٨١ أرسلت شركة الهند الشرقية أول شحنة كبيرة من الأفيون إلى الصين ؛ وكانت هذه التجارة المحرمة تتم تحت إشرف دقيق من الشركة الإنجليزية ولكن بطريقة ملتوية ، فقد كانت الشركة تبيع الأفيون بالمزاد العلنى فى كلكتا ثم تقوم السفن الريفية الساحلية التى يعمل عليها بحارة خصوصيون بترخيص من شركة الهند الشرقية بنقله إلى ساحل الصين ، ولما كانت محاولة بيع الأفيون فى كانتون تثير بعض المتاعب لأن تجار الهونج الذين يمثلون السلطات الصينية كانوا يحجمون عن شرائه تجنباً للمسئولية ، لذلك تحولت تجارة الأفيون إلى جزيرة صغيرة عند مصب نهر كانتون تسمى مرسى لنتن ، وهناك كان التجار الإنجليز يبيعونه إلى التجار الصينيين الخصوصيين لا تجار الهونج ، وكانوا يبيعون أيضاً فى مرسى لنتن كثيراً من البضائع الأخرى بعيداً عن إشراف الهونج ، أى أن جزءاً كبيراً من التجارة الرسمية تحول إلى عملية تهريب واسعة النطاق ، وسرعان ما بلغت هذه التجارة المهربة أضعاف التجارة

المشروعة . فنى عام ١٨٣١ بلغت قيمة التجارة الرسمية فى كانتون سبعة ملايين من الدولارات فى حين بلغت قيمة التجارة المهربة ١٧ مليوناً من الدولارات منها ١١ مليوناً ثمن الأفيون المباع فى مرسى لنتن ، وعندما ألغى احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الهند فى عام ١٨٣٤ واصلت السلطات البريطانية تهريب الأفيون إلى الصين بكميات وفيرة .

وبالرغم من أن الإمبراطور شبياشينج أصدر فى عام ١٨٠٠ مرسوماً بتحريم تجارة الأفيون وتعاطيه تحريماً مطلقاً نظراً لآثاره المدمرة على الصحة والاقتصاد، إلا أن هذا المرسوم ظل حبراً على ورق لأن مئات الألوف من الأهالى كانوا قد أصبحوا من مدمنى الأفيون ، كما أن عدداً كبيراً من التجار والمسئولين الذين أفسدتهم الأرباح الضخمة من وراء تجارة الأفيون أصبحوا يتحايلون على إلغاء آثار هذا المرسوم الإمبراطورى باستخدام النفوذ والرشوة .

وقفزت تجارة الأفيون بسرعة مذهلة ، فارتفعت نسبتها إلى التجارة البريطانية من ١٧٪ فى عام ١٨١٨ إلى ٥٠ ٪ فى عام ١٨٣٣ ، وكانت الواردات السنوية من الأفيون تبلغ ٢٠٠٠ جوال (الجوال يحتوى على ١٤٠ إلى ١٦٠ رطلا) عام ١٨٠٠ ، فقفزت إلى ٤٠ ألف جوال فى عام ١٨٣٨

وواصلت ارتفاعها المطرد بعد ذلك .

ودخل الأمريكيون شركاء للإنجليز فى التجارة المحرمة ، فكانت السفن الأمريكية تنقل الأفيون التركى من ميناء سامرا إلى الهند ، وهناك يتكفل التجار الإنجليز بتوصيله إلى الصين عن طريق سفنهم ومهربيهم نظير عمولة على الأرباح .

* * *

عندما يصل الأفيون إلى تجار الجملة فى الصين يقومون بتجهيزه وتوزيعه على صغار التجار والموزعين ، وعملية التجهيز معقدة بعض الشىء إذ تمر على عدة مراحل متعاقبة ، فهو ينقع أولا فى الماء مدة كافية ثم يغلى ويبخر ويضرب حتى يكتسب لوناً غامقاً ، وبعد ذلك يجفف فى شكل قوالب تقسم إلى أجزاء صغيرة تغلف وتصبح جاهزة للاستعمال .

وكان يطلق على هذا المستحضر اسم الشاندو ويحتوى على نسبة ٨ ٪ من المورفين ، وهناك مستحضر آخر أرخص منه ويحتوى على نسبة أقل من المورفين .

أما الطريقة التى كانوا يتناولون بها الأفيون فى الصين والأرخبيل الهندى فهى التدخين .. يضطجع المدخن على جانبه ، ويتناول قضيباً طويلا مجوفاً من المعدن الرفيع ويضع على طرفه المدبب المثقوب مقدار قمحة من الأفيون يشويها



على لهب سراج حتى تتوهج ثم يسحب منها ثلاثة أو أربعة أنفاس طوال ، ويستهلك المدخن المعتدل خمسا أو ست قمحات من الأفيون فى اليوم .

والأثر الأول لتدخين الأفيون محبب للغاية . فهو يجعل المدخن قادراً على تحمل التعب الشديد والصبر على الجوع مدة طويلة دون أن يبدو عليه أثر للإرهاق ، وهو يطلق العنان للخيال ، ويجعل الذهن فى صحوة دائمة ، حتى إن بعض المصانع التى أقامها الاستعمار البريطانى فى الهند كانت تشجع العمال على تعاطى الأفيون لأنه يضاعف قدرتهم على الإنتاج رغم ما يبدو عليهم من أعراض الهزال .

ولكن سرعان ما يتحول تدخين الأفيون إلى إدمان يتعذر التخلص منه ، وهنا تتوقف آثاره المحببة عن الظهور وتبدأ آثاره المدمرة تفصح عن نفسها . ولا يستطيع المدخن عندئذ أن يقلع عن عادته وإلا أصبح مهدداً بأعراض الجنون ، وعندما يصل المدخن إلى هذه المرحلة من الإدمان يفقد شهيته إلى الطعام ، ويركن إلى الكسل والإهمال ، ويبدأ الاضمحلال بدنيًّا وعقليًّا حتى يصبح هيكلا عظميًّا بليداً عديم النفع ، وأحياناً يصحب ذلك — لا سيما لدى الذين يأكلون الأفيون — آثار مرضية خطيرة كالحمى والدوسنتاريا والإسهال والروماتيزم

والزيف وداء الفيل . وينتهى الأمر بمثل هذا المريض إلى الدمار والموت الأكيد .

وكانت عادة تدخين الأفيون تنتشر بين أبناء الشعب الصينى بسرعة رهيبة كأنها ألسنة من اللهب تلتهم أعواداً جافة ، فلا يكاد يسلم منها أى شخص مهما كانت طبقته الاجتماعية أو مستواه الثقافى . فقد أقبل على تدخين الأفيون الأثرياء والفقراء ، الإقطاعيون والفلاحون ، المثقفون والتجار والعمال ، القضاة والمجرمون ، كبار الموظفين وحثالة القوم ، ضباط الجيش وجنوده ، وحتى النساء والأطفال . . جميعهم يدخنون الأفيون بنفس الطريقة . . يضطجعون على جنوبهم وبين أيديهم القضبان المعدنية الطويلة المجوفة يقربونها إلى اللهب ويشدون منها الأنفاس الزرقاء السامة .

وطبقاً لتقرير وضع عام ١٨٣٥ كان هناك مليونان من مدمنى الأفيون فى الصين ، وفى أواخر القرن قدر أن ٢٧ ٪ من أفراد الشعب الصينى البالغين يتعاطون الأفيون ، ومعنى ذلك أن حوالى ربع الشعب الصينى الذى بلغ تعداده إذ ذاك أربعمائة مليون كانوا معتلى الأبدان والنفوس .

ولم يفتك الأفيون بصحة الناس فحسب وإنما فتك أيضاً بالاقتصاد الصينى وأخذ يدمره تدميراً مما ترتب عليه انتشار

الأوبئة والمجاعات والبؤس والفقر فى قطاعات كبيرة من الشعب ولا سيما بين الفلاحين . وأصبحت جميع صادرات الصين التى تبلغ أرقاماً خيالية غير كافية لسداد ثمن الأفيون الذى تجلبه المراكب الإنجليزية والأجنبية ونتيجة لذلك اضطر الصينيون إلى دفع ثمن الأفيون بالفضة التى سبق أن باعوا بها منتجاتهم إلى الأجانب خلال القرون السابقة ، وبدأت الفضة تتدفق إلى خارج الصين كالسيل العارم جنباً إلى جنب مع كل البضائع والتحف الصينية التى أصبحت فى الواقع بلا ثمن على الإطلاق . فى خلال ثلاثينات القرن الثامن عشر كانت الصين تدفع ما يتراوح بين ٢٠ مليوناً و ٣٠ مليون تايل (أوقية صينية) من الفضة كل عام ثمناً للأفيون المهرب إليها والذى يفتك بصحة أبنائها ومعنوياتهم ، وهكذا حقق الإنجليز والأجانب بصفة عامة الهدفين اللذين يسعون إليهما : استرداد الفضة من الصينيين ، والاستيلاء على تجارتهم بلا مقابل !

وهكذا أصبحت الصين مهددة بالإفلاس كمتجر صغير يفقد رأس ماله ، فإن خروج الفضة وهى غطاء كل المعاملات ترتب عليه ارتفاع ثمنها ارتفاعاً كبيراً فى الداخل ، وسقط العبء بالطبع على كاهل الفلاحين لأن أثمان الغلال التى ينتجونها ويبيعونها بالعملات النحاسية هبطت بنسبة ارتفاع

الفضة إلى النحاس ، وزاد من سوء الحال أن الإقطاعيين وجباة الضرائب عملوا على تحصيل قدر أكبر من المحاصيل والضرائب حتى يظل رصيدهم من الفضة ثابتاً رغم ارتفاعها ، وأدى ذلك إلى مضاعفة أعباء النظام الإقطاعى الذى يخنق الأنفاس ، فبدأت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة من ثورات الفلاحين ، وأصبحت حركات التمرد والثورة ضد حكومة المانشو شائعة وواسعة النطاق ، وفى عام١٨١٣ تمكنت مجموعة من الثوار من اقتحام القصر الإمبراطورى فى بكين وكادوا يفتكون بمن فيه لولا أن تمكن الحراس من طردهم .

كانت الصين عندئذ أشبه بسفينة تشتعل فيها النيران ، وكانت حبلى بالثورة التى تجهضها كل يوم أعمال التمرد الفاشلة ، وضج الرأى العام فى أنحاء البلاد يطالب بالقضاء على الأفيون ، وبدأت حكومة المانشو تشعر بالخطر الذى يتهدد البلاد ويتهددها شخصياً ، فإن الوطن برمته أصبح يتهاوى كالحجر المندفع إلى سفح الجبل وسوف يدق عنقها كأول ما يدق من أعناق ، وبدأت السلطات تفكر فى استئصال شأفة الأفيون ، ولكن الرأى فى الدوائر الحاكمة انقسم إلى قطاعين : قطاع يمثله لين تسى هسو نائب الملك فى هونان وهوبيه يطالب بالقضاء علي هذا الخطر الوبيل ، وقطاع آخر أقوى نفوذاً

يستفيد من تجارة الأفيون ويعمل كل ما فى وسعه لاستمرارها ولكنه لا يجرؤ على الدفاع عنها صراحة .

وأخيراً انتصر الرأى الأول تحت ضغط الرأى العام والخوف من الآثار المالية والسياسية لتجارة الأفيون . فأصدر الإمبراطور تاوكوانج مرسوماً قويـاً بتحريم تجارة الأفيون تحريماً مطلقاً وتوعد كل من له علاقة بهذه التجارة بأشد ألوان العقاب ، وأمر الإمبراطور بتعيين لين تسى هسو الوطنى الكبير مندوباً إمبراطوريـاً سامياً وأرسله إلى كانتون مزوداً بسلطات واسعة ليضع مرسوم التحريم موضع التنفيذ .

* * *

كان لين تسى هسو رجلا وطنيـاً مخلصاً موفور الأمانة والشرف محبـاً للخير والاستقامة ، ذهب إلى كانتون فى ربيع ١٨٣٩ عاقداً العزم على استئصال شأفة تجارة الأفيون بكل حزم وصرامة متسلحاً بأخلاقياته التى تستعصى على الرشوة والفساد ، وسلطاته المطلقة التى تجعله فوق جميع المسئولين بما فيهم نائب الملك فى كوانجستين ، ويقال إن نائب الملك هذا قد أغمى عليه عندما سمع نبأ تعيين لين تسى هسو ممثلا للإمبراطور فى كانتون.

وبدأ لين تسى هسو نشاطه فى كانتون بتشجيع التجارة المشروعة ، وتضييق الخناق على تجارة التهريب والمخدرات ،

ولكنه كان مخطئاً فى اعتقاده أن حكومة لندن ليس لها شأن بهذه التجارة المحرمة وإنما هى من فعل المهربين الذين لا خلاق لهم والقراصنة الخارجين على القانون ، كان لا يستطيع أن يتصور من الناحية الفلسفية — وهو الذى يدين بنظرية كونفوشيوس فى أخلاقيات الدولة — أن تقدم حكومة ما على مثل هذا العمل اللا أخلاقى الشرير ، ما بالك وأن هذه الحكومة هى حكومة بريطانيا الثرية المتنورة ، ولذلك فقد حاول لين تسى هسو فى أول الأمر أن يكسب عطف المسئولين فى بريطانيا ويستعديهم على تجارة الأفيون ، وحينما أعاره المسئولون أذناً صماء توجه بنداءاته إلى الملكة فيكتوريا رأساً فبعث إليها بعدة رسائل تفيض بالرجاء والتقدير يلفت فيها أنظار جلالتها إلى تلك الجريمة التى يرتكبها المهربون الإنجليز فى حق الشعب الصينى المسالم على غير علم منها ، فنجده يقول فى إحدى هذه الرسائل : « لقد فكرنا فى الأمر فتبين لنا أن هذه المادة الضارة يصنعها غدراً مدبرون للشر مكرة تحت سيادة شعبكم الشريف ، ولا مراء عندى أنكم وأنتم ذوو الرئاسة الشريفة لم تأمروا بزراعة هذه المادة وبيعها » ثم يضيف قائلا : «إن بريطانيا نفسها لا يسمح للناس فيها بتدخين ذلك المخدر ، فإذا سلمنا أنه على مثل هذه الدرجة من الضرر الوبيل ، فكيف تقدمون على الاستفادة بتعريض

الغير لتأثيره المؤذى ، وترون ذلك متفقاً مع ما تأمر به السماوات ؟»

ولكن للأسف ذهبت نداءات لين تسى هسو أدراج الرياح ، فقد كانت الحكومة البريطانية فى لندن على علم تام بتجارة الأفيون التى تمارسها سلطاتها وتجارها فى الصين ، بل كانت تشجعها نظراً لما تدره من أرباح طائلة على الخزانة البريطانية، وذلك رغم تحريم القانون الإنجليزى للأفيون تحريماً مطلقاً ، وحدث أن ناقش البرلمان الإنجليزى بمجلسيه تجارة الأفيون فى الهند والصين مناقشة تفصيلية عن طريق لجان خاصة وتقارير وافية ، وانتهى المجلسان الموقران إلى قرار بأن البرلمان البريطانى «لا يرى من المصلحة التخلى عن مصدر للإيراد له مثل هذه الأهمية القصوى» ، وهكذا كانت تجارة الأفيون المنافية لقواعد القانون والأخلاق تقرها أعلى السلطات فى لندن وتشجع على استمرارها .

وعندما وجد لين تسى هسو أن توسلاته لا تجدى توقف عن المناشدة والرجاء وقرر القيام بعمل إيجابى ، فأمر التجار الأجانب بتسليم ما لديهم من صناديق الأفيون والتوقيع على تعهدات بعدم إحضاره أو بيعه فى الصين وإلا تعرضوا لعقوبة المصادرة ، بل الإعدام فى حالة العود .

ورفض الكابتن شارلس إليوت المشرف البريطانى على التجارة فى كانتون الصدوع للأمر ، فأوعز إلى التجار البريطانيين

بعدم تسليم ما لديهم من المخدرات وعدم التوقيع على التعهدات .

ولم يسكت لين تسى هسو بل قام متشجعاً بسلطاته المطلقة وتأييد الشعب له بمحاصرة حي التجار الأجانب فى كانتون ، وقطع عنهم موارد الماء والخضر ، ومنع دخول سفنهم أو خروجها من الميناء، وأمر جميع العمال الصينيين العاملين لديهم بترك أعمالهم.

وبعد حصار استمر ثلاثة أيام على هذا النحو اضطر الكابتن تشارلس إليوت إلى تسليم أكثر من ٢٠ ألف صندوق تضم حوالى مليون كيلوجرام من مادة الأفيون ، ومنها أكثر من ألف صندوق يملكها تجار أمريكيون ، إلى لين تسى هسو ، وكتب التجار الأجانب تعهدات على أنفسهم بعدم العودة إلى الاتجار فى هذه المادة مرة أخرى .

وفى ٣ يونيو ١٨٣٩ أقام لين تسى هسو احتفالا عامًّا حضره جمع غفير من الأهالى والجند وقام بإشعال النار فى الأفيون المستولى عليه ، وارتفعت ألسنة اللهب الأزرق من جبل الأفيون تشق عنان السماء ، ولاشك أن مدمنى الكيف من أهل كانتون قد « نعموا » فى ذلك اليوم بأوفر مزاج فى حياتهم ، ولكن هذا العمل الحاسم استطاع أن ينقذ الملايين من أهالى الصين لفترة قادمة .

وجن جنون التجار الأجانب وخاصة الإنجليز الذين فقدوا بضربة واحدة الشطر الأكبر من رءوس أموالهم ، وقرروا أن يلقنوا لين تسى هسو وشعب الصين درساً لا ينسى .

وحاولت شركة « جارداين وماثيسون » البريطانية تنفيذ خطة جديدة لتهريب الأفيون من مانيلا بالفلبين إلى ساحل الصين الجنوبى بوساطة سفن مسلحة مستعدة لإطلاق النار على من يعترض طريقها ، ولكن لين تسى هسو فطن إلى الخطة فوضع عروقاً خشبية فى الشواطئ وسلاسل حديدية فى مدخل نهر بيرل ، وأقام قلاعاً جديدة على طول الطريق ونصب ٣٠٠ مدفع على شواطئ النهر استعداداً لمواجهة أى غزو بريطانى ، وكان لين تسى هسو يتمتع أيضاً بلقب أمير البحر وتحت إمرته أسطول صينى مسلح .

ومضى الإنجليز والأجانب من جانبهم فى الاستعداد لتأديب الصين وإرغامها على فتح أبوابها أمام تجارة الأفيون ، فقد آن الآوان لإذلال هذه الإمبراطورية الجوفاء وجعلها تتخلى عن شموخها الكاذب وتجثو على قدميها أمام مصالح الأجانب .

وبعد عدة أسابيع من القلق والتوتر انطلقت الشرارة التى أشعلت نيران الحرب .

٤ ـ حرب الأفيون الأولى

ذات يوم اعتدت مجموعة من البحارة الإنجليز السكارى على بعض الأهالى فى ميناء كانتون ، وسقط أحد الصينيين قتيلا فى المشاجرة . .

وكان من الممكن أن يمر هذا الحادث ببساطة كجريمة فردية لولا أن الصينيين والإنجليز على السواء تشددوا فى موقفهم وكأنهم ينتهزون الفرصة لتسوية الحساب القديم .

فقد أدى الحادث إلى إثارة أهالى كانتون الذين يضيقون أبلغ الضيق بتصرفات الأجانب واستهانتهم بالنظام والأخلاق ، والذين كانوا فى نفس الوقت سكارى بنشوة النصر يوم حرق الأفيون حين اضطر الأجانب صاغرين إلى الامتثال لأوامر السلطات وكتبوا على أنفسهم تعهدات بعدم مخالفة القوانين الصينية ، ولذلك عرف أهالى كانتون أن الحزم خير وسيلة يجب اتباعها إزاء هؤلاء الأجانب ، وعزموا على أن لا يضيع دم القتيل الصينى هدراً .

وطلب لين تسى هسو من شارلس إليوت المشرف على

التجارة البريطانية تسليمه الجناة لمعاقبتهم طبقاً للقانون ، ولكن إليوت رفض الطلب ، ولم يكن لين تسى هسو بالشخص الذى يسمح بمثل هذا الانتهاك الصارخ لقوانين البلاد . فأصدر على الفور أمراً قاطعاً للسفن الإنجليزية الراسية فى ميناء كانتون بتسليم المسئولين عن الحادث أو مغادرة مياه الصين خلال ثلاثة أيام ، وإلا فإنه سوف يضطر إلى استخدام القوة ، وأمر بالفعل السفن الصينية المسلحة التى تحت إمرته بالتحرك لمحاصرة سفن الإنجليز .

وهنا وجد الإنجليز ضالتهم المنشودة فسارعوا بإرسال فرقاطتين حربيتين هما « الفولاج » و « الهياسنت » إلى ميناء كانتون ، ولم تضع الفرقاطتان وقتاً فأطلقتا نيرانهما فوراً على السفن الصينية وأغرقتا عدداً منها ، وهكذا بدأت حرب الأفيون الأولى .

أعلنت بريطانيا الحرب على الصين فى أبريل ١٨٤٠ ولكنها لم تجرؤ بالطبع على التصريح بأن سبب الحرب هو تحريم الصين لتجارة الأفيون المربحة بل زعمت بصفة عامة أن سبب إعلان القتال ، وقوف الصين فى وجه التجارة الحرة ، وسوء معاملتها للتجار والرعايا الإنجليز ، ولم تنس أن تطالب بتعويض

عن الأفيون المصادر ، لا باعتباره مادة مخدرة ، وإنما باعتباره سلعة تجارية أولا وأخيراً .

وسارت الحرب بين الإنجليز والصينيين فى مد وجزر ، غير أن تفوق الأسلحة والتكتيك فى الجانب الإنجليزى كان غالباً ما يرجح شجاعة الجانب الآخر وتضحياته . .

وصل الأسطول البريطانى بقيادة جورج إليوت إلى بحر الصين الجنوبى فى مواجهة كانتون فى شهر يونيو ١٨٤٠ ، ولكنه إذ وجد ميناء كانتون محصناً تحصيناً قوياً اتجه شمالا إلى آموى بإقليم فوكين ، ودارت معركة صغيرة هزم فيها الإنجليز ، فواصلوا إبحارهم شمالا إلى تنيجهاى بخليج كوشان ، ورغم المقاومة البطولية التى أبداها المدافعون عن تينجهاى من عسكريين ومدنيين سقط الميناء فى أيدى الإنجليز نظراً لعدم وجود تحصينات كافية فيه .

وما إن وصلت أنباء سقوط تينجهاى إلى بكين حتى انزعجت حكومة المانشو وأسقط فى يدها وبدأت تسعى للصلح ، وكان أول إجراء اتخذته تحقيقاً لهذه الغاية أن قامت بعزل القائد الوطنى العظيم لين تسى هسو من جميع مناصبه ، وتقديمه إلى المحاكمة والعقاب بحجة أن أفعاله الرعناء هى التى تسببت فى هذه الكوارث !

كان ذلك انتصاراً للدوائر المستفيدة من تجارة الأفيون والتهريب ، وهى دوائر قوية النفوذ فى بلاط المانشو وتتمتع برعاية الإمبراطور تاو كوانج نفسه ، واختارت تلك الدوائر شخصية خائنة مهادنة أوفدتها إلى كانتون خلفاً للين تسى هسو مزودة بصلاحيات التفاوض مع الإنجليز هو شى شان .

وعندما وصل شى شان إلى كانتون أمر فوراً بإزالة الأخشاب والسلاسل والمتاريس التى وضعها لين تسى هسو فى مدخل نهر بيرل ، وحل فرق المقاومة الشعبية ، ونزع المدافع من القلاع ، إظهاراً لحسن نية الصين !

ولكن الإنجليز استغلوا الموقف لإظهار قوتهم وإرغام الصين على الركوع فقصفوا بقنابلهم قلاع يوجو خارج كانتون ، واحتلوها ، وطلبوا تسليمهم مناطق أخرى ودفع غرامة كبيرة ، وسارع شى شان بإرسال أحد مفاوضيه إلى شوينبى بالقرب من يوجو ، وهناك وقعت اتفاقية «شوينبى» التى نصت على تسليم هونج كونج إلى الإنجليز ، ودفع غرامة قدرها ستة ملايين ريال من الفضة ، وفتح كانتون للتجارة البريطانية .

وعندما وصلت أنباء اتفاقية شوينبى إلى بكين اهتاج الإمبراطور تاو كوانج ووجدها ماسة بكرامة الإمبراطورية ، بما فعله بلين تسى هسو كرره مع شى شان تحت ضغط

الدوائر التى تدعو إلى عدم مهادنة الإنجليز ، فأمر بعزله ومحاكمته وتعيين يى شان خلفاً له ، ويقال إنه عندما صودرت أموال الخائن شي شان وجد أنها تضم ١١ ألف أوقية من الذهب و ١٧ مليون أوقية من الفضة ، وعدداً كبيراً من الصناديق الملآى بالمجوهرات الثمينة و ٤٢٧ ألف أكر من أجود الأراضى !

ولما علم البريطانيون بنوايا حكومة شينج عاودوا الهجوم على قلاع يوجو بعد أن كانوا قد انسحبوا منها ، وقاوم القائد الصينى كوان تيان بى وقواته مقاومة باسلة حتى آخر رجل ضد الغزاة ، ولكن قلاع يوجو سقطت أخيراً فى أيدى الإنجليز ، وفى مايو ١٨٤١ اضطر يى شان إلى رفع العلم الأبيض على أسوار كانتون ، وتوقفت الحرب مؤقتاً .

غير أن شعب كانتون قرر المقاومة إلى النهاية ، وتقدمت القوات البريطانية إلى ضواحى كانتون وهى ترتكب أبشع ألوان المخازى والجرائم ، فهى تحرق القرى ، وتنهب المنازل ، وتغتصب النساء ، وتذبح الشيوخ والأطفال ، وهب أهالى كانتون للدفاع عن مدينتهم وانضم إليهم عشرات الألوف من سكان القرى المجاورة ، واندفعوا مسلحين بالفئوس والسهام والهراوات والمجارف إلى سانيوانلى حيث وصلت القوات البريطانية فحاصروها ،

وكان الرجال يحاربون بأسلحتهم البدائية بينما النساء والأطفال يحملون إليهم الطعام والماء ، وساعدتهم الطبيعة فهطلت أمطار غزيرة أربكت الإنجليز ، وجعلتهم يخوضون فى حقول من الطين ، ودب فيهم الذعر بعد أن حوصروا كالفئران في المستنقعات ، وفر قائدهم جورج إليوت ، وسقط منهم مئات القتلى والجرحى ، وكاد الأمر ينتهى بإبادة الحملة البريطانية عن بكرة أبيها ، لولا أن أرسل ين شان رجاله إلى سانيوانلى بأوامر من بكين فأقنعوا الفلاحين بفك الحصار والعودة إلى قراهم زاعمين لهم أن الحرب قد انتهت والإنجليز قد استسلموا .

ولم تكتف حكومة المانشو بذلك ظناً منها أن الحرب قد انتهت بالفعل فأمرت حراس الشواطئ بالتفرق ، ولكن الإنجليز استغلوا الفرصة كعادتهم واستجمعوا قواهم وقاموا بغزو ساحل الصين للمرة الثانية فى أغسطس ١٨٤١ .

والواقع أن حكومة المانشو لم تثبت على سياسة الحرب أو الاستسلام فكانت تتذبذب بين هذه وتلك تبعاً للظروف ولغلبة إحدى القوى على الأخرى فى السياسة الداخلية ، فهى اليوم تنفخ أبواق الحرب وغداً تلوح برايات السلام ، وكان حكام الأقاليم المختلفة يتصرفون بصفة مستقلة وبدون خطة مركزية



مدروسة . فبينما نجد أحد الأقاليم مشتركاً فى قتال الإنجليز نجد إقليماً آخر يناوضهم على الصلح ، وكان على الشعب فى كل الحالات أن يدفع أموالا باهظة سواء كنفقات للحرب ، أو غرامات للصلح . أو كفدية للإنجليز حتى لا يحتلوا مدنهم ويدمروها تدميراً .

وفى هذه الأثناء وصلت تعزيزات بريطانية جديدة بعد أن رفضت حكومة لندن أيضاً اتفاقية شوينبي باعتبارها غير كافية ، وقامت القوات البريطانية بهجوم مفاجئ مركز فى نقط مختلفة على شاطئ الصين فاحتلت آموى وتينجهاى ونينجبو وكانتون وشنجهاى ، وتغلغلت داخل الأراضى الصينية لتقطع القناة الإمبراطورية الكبرى شريان الملاحة الرئيسى بين الشمال والجنوب ، وكان المدافعون يحاربون بشجاعة فائقة ولكن تخلف بلادهم الحضارى كان يتربص بهم فتوالت عليهم الهزائم والانندحارات ، ورفض مئات من المحاربين الصينيين الهزيمة أو التسليم فكانوا ينتحرون بعد أن يقتلوا أفراد أسراتهم بأيديهم .

ومضت القوات البريطانية فى تقدمها فاحتلت شينكيانج ، وعندما بدأت تهدد نانكينج وهى المدخل المباشر لبكين قررت حكومة المانشو وضع حد نهائى للقتال الذى استمر عامين

وبقبول جميع الشروط التى يمليها الإنجليز .

وفى ٢٩ أغسطس ١٨٤٢ وقعت معاهدة نانكينج على ظهر إحدى السفن الإنجليزية الراسية بالقرب من نانكينج . وبذلك تورطت الصين فى أولى المعاهدات غير المتكافئة التى أوقعتها تحت رحمة الرأسمالية الأجنبية والاستعمار العالمى ، وكان من نتائجها القضاء على سيادة حكومة المانشو من جانب ، وثورة الشعب ضد النظام الإقطاعى من جانب آخر .

* * *

تعد معاهدة نانكينج من أكبر الأمثلة الصارخة التى عرفها القانون الدولى فى باب المعاهدات غير المتكافئة ، وهى أقرب إلى كونها معاهدة تسليم بلا قيد أو شرط منها إلى معاهدة بين دولتين ذاتى سيادة قامت بينهما حرب محدودة ، ومن الأحكام التى نصت عليها معاهدة نانكينج والبروتوكولات الملحقة بها والتى وقعت فى العام التالى ما يلى :

* فرض غرامة مالية على الصين مقدارها ٢١ مليون دولار كتعويض عن الأفيون الذى صادره وأحرقه لين تسى هسو .
* تنازل الصين عن ميناء هونج كونج ليكون مستعمرة بريطانية . وقد اتخذت هذه المستعمرة منذ اليوم الأول كقاعدة للتغلغل

العسكرى والسياسى والاقتصادى فى الصين .

* فتح خمسة موانئ كبرى للتجارة البريطانية الحرة وهى كانتون وفوشاو وأموى ونينجبو وشنجهاى .
* إعفاء الرعايا الإنجليز من الخضوع للقانون الصينى جنائياً ومدنياً .
* تمتع بريطانيا بشرط « الدولة الأكثر رعاية » فى معاملاتها التجارية مع الصين مما يتيح لها الحصول على كافةالمزايا التى تمنحها الصين لأية دولة أخرى .
* تعهد الصين بعدم اقتضاء رسوم جمركية على الواردات البريطانية تزيد على نسبة ٥ ٪ من قيمة هذه الواردات مما صادر إمكانيات نمو الصناعة الوطنية فى الصين وحرمها من الحماية .

ولم يقتصر الأمر على بريطانيا وحدها بل كانت الدول الغربية الأخرى تنتظر فى لهفة نتائج الحرب الصينية الإنجليزية ، وبمجرد انتهاء الحرب وتوقيع معاهدة نانكينج التى مرغت هامة الصين فى الرغام بدأت تلك الدول تتحرك للحصول على نصيب من الغنيمة فى حرب لم تشترك فيها ، وكانت أسبقها الولايات المتحدة التى أوفدت إلى ماكاو مبعوثاً خاصاً هو « كالب كوشينج » الذى قام باتصالات مع السلطات الصينية طالباً

منح الولايات المتحدة تنازلات مماثلة للامتيازات التى حصلت عليها بريطانيا ، وإلا فإن الولايات المتحدة من حقها أن تعتبر رفض الصين بمثابة إهانة وطنية لا يمكن أن تسكت عليها .

وأرسل المبعوث الأمريكي مذكرة عنيفة اللهجة إلى « شنج يوتساى » القائم بأعمال نائب الملك فى كوانجتونج وكوانجسى أوضح فيها أن رفض الصين للمطالب الأمريكية يعد بمثابة دعوة للحرب ، وفزعت حكومة المانشو التى خرجت لتوها من معركة إثبات القوة مع الغرب ، وسارعت بالدخول فى مفاوضات مع كوشينج انتهت بتوقيع معاهدة وانجهيا فى يوليو عام ١٨٤٤ فى قرية بهذا الاسم بالقرب من ماكاو ، وكانت هذه المعاهدة نسخة منقحة من معاهدة نانكينج إذ نصت على كل أحكامها تقريباً بالإضافة إلى مزايا أخرى خاصة بالإعفاءات القضائية ، والمعاملة الجمركية ، والملاحة فى الأنهار الداخلية .

وتقدمت فرنسا طالبة توقيع معاهدة مماثلة حتى لا يمس الشرف الوطنى الفرنسى (١) ، وحصلت على بغيتها بتوقيع معاهدة وامبوا فى أكتوبر ١٨٤٤ والتى نصت على كافة المزايا السابقة بالإضافة إلى الاعتراف بحق فرنسا فى نشر الكاثوليكية فى الصين بما فى ذلك الحق فى إقامة الكاتدرائيات والأديرة وحماية

الذين يعتنقون الدين المسيحى من الصينيين . ومعنى ذلك حماية أى خائن أو مجرم يقدم على اعتناق المسيحية هرباً من العقاب، وأرغمت حكومة المانشو على الاعتراف بشرعية الديانتين الكاثوليكية والبروتستنتية فى الصين .

وبالرغم من أن النشاط التبشيرى كان ضعيفاً فى الصين فى ذلك الحين ، فلا يقاس مثلا بما كان عليه فى أفريقيا ، إلا أن ذلك لم يمنع المبشرين الغربيين منذ البداية من القيام بدورهم المعروف فى خدمة الإستعمار ، فقد كان المبشرون الأجانب هم الوحيدين الذين يعرفون اللغة الصينية وعادات الصين، ووضعوا علمهم وإمكانياتهم فى خدمة الاستعماريين العسكريين والسياسيين الذين دبروا ونفذوا حروب الأفيون ، فكانوا يقومون بدور الوسطاء والمستشارين للتدخل الأجنبي لدى السلطات الصينية ، فمثلا كان المبشر البروسى دكتور جوتزلاف وسيطاً لشركة جاردابن البريطانية التى تتاجر فى الأفيون ، وكان يتقاضى على وساطته عمولة مالية للإنفاق على مجلته الدينية التى ينشر بها الدعوة المسيحية فى بلاد الصين ، وعندما قامت حرب الأفيون عمل دكتور جوتزلاف مترجماً للقوات البريطانية حتى توقيع معاهدة نانكينج واشترك فى المفاوضات الخاصة بالمعاهدة .

وكذلك قام المبشرون الأمريكيون ويليامز وبريدجمان وباركر بنفس الدور فى توقيع معاهدة وانجهيا الأمريكية ، وكان المبشر باركر الذى أصبح فيما بعد وزيراً أمريكياً مفوضاً لدى الصين هو الذى نصح الدبلوماسى الأمريكى كاليب كوشينج باتخاذ موقفه المتشدد، وقام بنقل تهديداته بالصينية إلى المسئولين فى حكومة المانشو .

وهكذا بدأ انهيار سور الصين العظيم أمام البرابرة الجدد . . أولئك البرابرة الذين لم تقذفهم صحارى آسيا القاحلة وإنما جاءوا من بلاد بعيدة تفخر بأنها الأكثر نوراً وتقدماً ، ومنذ اللحظة التى أفلتت فيها قدم حكام المانشو فى أول اتفاق غير متكافئ مع هؤلاء البرابرة بدأ الميزان يختل على طول الخط ويزداد اختلالا كل يوم ، فقد أصبحت الصين نهباً يتناوشها الأجانب ، وتكررت معها قصة القرد وقطعة الجبن !

إذ لم ترض أية دولة أجنبية بما منحت ، وإنما تقدمت تطلب المزيد بمقتضى شرط الدولة الأكثر رعاية ، فالإنجليز يطالبون بالتنازلات التى منحتها الصين للأمريكيين بمقتضى معاهدة وانجهيا ولم ترد فى معاهدة نانكينج ، والفرنسيون يطالبون بالامتيازات التى نصت عليها معاهدة نانكينج ولم ترد فى معاهدة

وامبوا ، والواقع أن شرط الدولة الأكثر رعاية الذى ورد فى بروتوكول بوجو (١٨٤٣) وهو أحد البروتوكولات المكملة لمعاهدة نانكينج كان نصه كالآتى : «إذا منح الإمبراطور فيما بعد ولأى سبب كان أية امتيازات أو حصانات إضافية لرعايا أو مواطنى أية دولة أجنبية أخرى فإن نفس هذه الامتيازات أو الحصانات سوف تمتد ويتمتع بها الرعايا البريطانيون» .

وكان المفاوضون الصينيون الذين وافقوا على هذا الشرط يعتقدون أنه سوف ينقذ الصين من الدخول فى خصومات مع الدول الأجنبية فى المستقبل ، ولم يطف بخلدهم أنه سيكون بمثابة ثقب دائم يستنزف بصفة مستمرة سيادة الصين واستقلالها ، وسوف ترغم بمقتضاه إمبراطورية السماء على تقديم سلسلة لا نهاية لها من التنازلات تشكل الأساس الصلد للوجود الاستعمارى فى المستقبل .

ولم تكتف الدول الاستعمارية مجتمعة بما حصلت عليه من امتيازات ، وإنما أخذت تزاول كل ما تستطيع من ألوان الضغط للحصول على مزيد من التنازلات والتسهيلات التى لم ترد فى أية معاهدة . فلم تكن كل هذه المعاهدات مثلا تنص على حق الأجانب فى استيطان أراض صينية ، ولكن بريطانيا والولايات

المتحدة وفرنسا طلبت من المسئولين المحليين فى شنجهاى حق إقامة مستقرات أجنبية فى مناطق معينة حول شنجهاى وفى داخلها وحصلت على ما تريد .

ومن الطريف أن حكومة المانشو التى تقدمت بكل هذه التنازلات إلى الأجانب لم يكن يعنيها سوى شىء واحد هو الامتناع عن إنشاء علاقات دبلوماسية مع الدول الأجنبية ورفض استقبال ممثلين دبلوماسيين فى بكين ، وكانت تعتقد أنها بذلك تثبت على تقاليدها المتعالية إزاء الأجانب وتنقذ ماء وجهها أمام الشعب ، لأن قبول السفراء الأجانب فى بكين معناه إشعار الناس بأن العرش الإمبراطورى العظيم قد خضع تماماً للدول الأجنبية ، ومن الناحية التاريخية ظلت الدول الأجنبية عدة قرون تحاول عبثاً إرسال سفرائها إلى بكين ، وفى المرات القليلة التى كان يسمح فيها لبعثات أجنبية بالدخول إلى العاصمة الإمبراطورية كان عليها أن تتصرف كبعثات تحمل الجزية إلى أعتاب الإمبراطور ، فكيف ترضى الحكومة الآن بما رفضته طيلة القرون الماضية ؟ أليس فى ذلك قضاء على هيبة إمبراطورية السماء أمام الأجانب ورعاياها على السواء !

لقد أصبحت حكومة المانشو تتمسك بالماضى وتفرط فى الحاضر والمستقبل ، وتلك سمة انهيار الدول .

٥ ـ كفاح الشعب

لم يضع الشعب السلاح حين وضعته حكومة المانشو . .
وكان الشعب الصينى قد فقد تماماً الثقة فى حكومته منذ خضوعها الفعلى للمطالب الأجنبية مهما أصرت بعد ذلك على إغلاق بكين فى وجه البعثات الدبلوماسية . وعندما بدأت السلطات الحاكمة تهادن المعتدين ناصبها الشعب العداء الصريح ، وهكذا ظلت حرب الأفيون مشتعلة الأوار تحت الرماد بين الأجانب والسلطات فى جانب واحد ، والشعب فى الجانب الآخر .

وأصبحت كانتون ساحة الصراع الرئيسى بين الشعب والمستعمرين والسلطات ، ففيها يقيم نائب الملك المزود بتعليمات المهادنة ، وفيها تتركز الشركات الأجنبية التى تتاجر فى الأفيون والبضائع المهربة ، وفيها تعسكر القوات البريطانية على استعداد للقيام بجولات أخرى ضد الصين ، وفيها أكثر قوى الشعب الصينى تعرضاً للأجانب وإدراكاً لخطرهم ، وهكذا أصبحت كانتون مركز التوتر ، وترمومتر الأزمة الصينية .

وفور توقيع معاهدة نانكينج طلب الإنجليز من نائب الملك حق دخول كانتون باعتبارها من موانئ المعاهدة ، فغلى مرجل الغضب الشعبي ، وظهرت فى شوارع المدينة لافتات حمراء وبيضاء تدعو إلى مقاومة الإنجليز والحيلولة دون اقتحامهم المدينة بالقوة ، وتكونت جمعية سرية تسمى « شنج بنج شيه سويه » للدفاع عن المدينة ، كانت عبارة عن ميليشيا محلية تلقائية مسلحة ، ارتفعت عضويتها سريعاً حتى بلغت زهاء مائة ألف من الفلاحين وأصحاب الحرف والتجار والنساء ، وبفضل هذه المقاومة الشعبية تمكن أهالى كانتون من الحيلولة دون الإنجليز ودخول مدينتهم أكثر من عشر سنوات ، أى إلى ما بعد قيام حرب الأفيون الثانية ، وهذا دليل على أن سلطات المانشو لا الشعب هى التى وضعت السلاح بعد الحرب الأولى .

وحدثت بالفعل عدة اشتباكات بين الإنجليز وأهالى كانتون منها ذلك الاشتباك الذى حدث فى ديسمبر ١٨٤٢ بعد أربعة أشهر من توقيع معاهدة نانكينج ، وضرب فيه الأهالى عدداً من البحارة الإنجليز الذين تحرشوا بهم كما أحرقوا عدة بيوتات تجارية أجنبية ، ولكن لنترك نائب الملك فى كوانجتونج يصف الحادث فى تقريره الذى رفعه إلى السلطات :

« منذ عادت سفن البرابرة الإنجليز من فوكين وشكيانج إلى هونج كونج ازداد الأجانب وقاحة وصلفاً ، وهناك حالات كثيرة أساء فيها التجار الأجانب المقيمون فى المستقرات الأجنبية الثلاثة عشر معاملة الأهالى ، فكانوا ينهبون المتاجر وهم سكارى ويهينون السيدات المارات ، وتكاد الأمور أن تتطور لولا أن المسئولين المحليين كانوا يتخذون من التدابير ما يكفى لإخماد الاضطرابات فى مهدها ، ولكن ، على أية حال ، أصبح الشعب وقد ملأه السخط يتحرق شوقاً لتسوية الحساب مع البرابرة الأجانب ، وفى اليوم الثالث والعشرين من الشهر القمرى العاشر ظهرت لافتات تستنكر جرائم الأجانب وتهدد بالانتقام ، وفى مساء اليوم السادس من الشهر القمرى الحادى عشر (٧ ديسمبر ١٨٤٢) حدث أن اشترى بحار بريطانى فاكهة من بائع صينى متجول ورفض أن يدفع له ثمنها ، فطلب منه البائع أن يعطيه حقه ، فطعنه البحار بسكين وأصابه بجراح بالغة ، وكان جمع من الناس يشهدون ما حدث فأخذهم الغضب الشديد وكادوا يفتكون بالبحار ، ففر البحار الإنجليزى إلى البناء الكبير الذى يقيم فيه وأغلق خلفه الباب ، وتجمهر الأهالى أمام البناء وأخذوا يصيحون على الأجانب بينما راح

الأجانب يقذفونهم بالحجارة من الطابق الأعلى للبناء ، وعندما بلغنا ما حدث أمرنا على الفور المسئولين المحليين بالذهاب إلى مكان الحادث للتحقيق وإقرار النظام ، وفى المساء بدأ الجمع يتفرق تدريجيًّا ، ولكن فجأة ارتفعت ألسنة اللهب من البناء وأمكن إخمادها ، ومنذ ذلك الوقت وضعت حراسة مشددة ليلا ونهاراً فى هذا المكان الذى أصبح هادئاً تماماً منذ اليوم التالى ، والذى أود أن أوضحه أن الأجانب عندما أحسوا أنهم أثاروا غضب الأهالى أصابهم الذعر الشديد ولكن عندما أكد لهم المسئولون المحافظة على سلامتهم هدأت نفوسهم وأعربوا عن امتنانهم للسلطات » .

وهكذا كانت سلطات المانشو تحمى الأجانب من غضب الشعب رغم علمها بجرائمهم وأخطائهم ، ولذلك فقد الشعب تماماً احترام السلطات وبدأ يناصبها العداء ، وعندما عين كى يينج ، وهو المسئول الصينى الذى وقع معاهدة نانكينج ، نائباً للملك فى كوانجتون وكوانجسى وذهب إلى كانتون فى عام ١٨٤٣ اتهم « الرعاع المحليين » بتدبير كافة الانفجارات المعادية للأجانب ، وأضاف قائلا : « إن الشك وعدم الثقة سمما العلاقات بين الشعب والأجانب ، وإذا لم يعالج ذلك بحكمة فإن أحداثاً

مؤسفة أخرى سوف تقع لا محالة » .

وهكذا كان المسئولون فى حكومة المانشو يتظاهرون بالحياد بين الأهالى والأجانب على أساس أنهم فوق الطرفين ، ولكنهم كانوا فى الواقع يحمون الأجانب المعتدين من غضب الشعب ولا يستطيعون اقتضاء حقوق الشعب منهم . كان الدور الحقيقى الذى يقومون به هو مهادنة الأجانب وقمع الشعب مما أفقدهم ثقة الناس وحبهم ، وظهرت ملصقات ومنشورات سرية على جدران كانتون تهاجم الحكام والأجانب على السواء ، وجاء فى أحد الملصقات :

« إن حكامنا المجرمين هم شركاء للإنجليز اللصوص فى جميع الأفعال التى يرتكبونها ضد النظام والعدالة ، وفى الشهر القمري الخامس من العام الحالى ذبح عدد كبير من الصينيين بأيدى الأجانب وألقيت جثثهم فى النهر لتدفن فى بطون الأسماك ، ولكن سلطاتنا المحترمة تجاهلت هذه الجرائم كما لو كانت لم تسمع بها على الإطلاق ، إن حكامنا يعاملون الشياطين الأجانب كآلهة ويحتقرون الصينيين كما لو كانت أجسادهم قد صنعت من لحوم الكلاب ، ولايجعلون لحياة الناس قيمة أكبر من قيمة شعرة انتزعت من فروة الرأس ، وهم

يعملون على إبقاء العرش جاهلا بما يحدث فى البلاد ، وعلى إهمال التصرف فى هذه الأمور بما تستحق من اهتمام ، ولذلك فإن آلافاً من الناس قد أفعمهم الحزن والغضب ، وأصبح الأسى يخترق نخاع عظامهم ، وإليهم نقول إن العزاء الوحيد هو الإفصاح عن آلامهم فى الاجتماعات العامة » .

وكتب مسئول صينى مذكرة إلى البلاط الإمبراطورى عام ١٨٤٦ يصف فيها الموقف فى كانتون قائلا :

« إن هوة عميقة بين المسئولين والشعب قائمة منذ أمد طويل، وعداء أهالى كانتون تجاه المسئولين المحليين ليس أقل من عدائهم تجاه الأجانب » .

وفى يناير ١٨٤٦ خضع كى يينج نائب الملك فى كوانجتون وكوانجسى لمطالب الإنجليز وقرر فتح مدينة كانتون للأجانب ، ولكن الأهالى هبوا فى ثورة عارمة احتجاجاً على هذا القرار وحرقوا مقر الوالى ، وساد الاضطراب فى كانتون فترة من الزمن حتى اضطرت حكومة بكين إلى خلع كى يينج ، وتعيين هسو كوانج شين خلفاً له ، ولم تفتح كانتون أبوابها للأجانب .

ولم يسكت الإنجليز على تجاهل تنفيذ روح اتفاقية

نانكينج على هذا النحو وقرروا فتح كانتون بالقوة ، فى عام ١٨٤٩ قام حاكم هونج كونج البريطانى على رأس قوة مسلحة بشق طريقه بالقوة فى نهر بيرل مطالباً بفتح المدينة ، وردت جمعية « شنج بنج » على هذا التحدى بأعنف كفاح فى تاريخها ، وتحت الضغط الشعبي اضطر هسو كوانج شين نائب الملك فى كوانجتون وكوانجسى إلى الصعود بنفسه إلى ظهر السفينة البريطانية ورفض الطلب فى وجوه الإنجليز قائلا لهم: « إن الشعب هو عماد الدولة ، وما دام الشعب يرفض فتح مدينة كانتون فإن الإمبراطور وممثليه ليسوا فى حالة تسمح لهم بإرغام الشعب على ذلك إرضاء للأجانب » . وفى نهاية هذا الموقف التاريخى اعتقل الإنجليز هسو كوانج شين وحجزوه فى سفينتهم ، وعندما انتشر نبأ اعتقاله تجمهر عشرات الألوف من أعضاء جمعية « شنج بنج » على ضفتى النهر وتهيأوا للقتال ، فاضطر الإنجليز إلى إطلاق سراح المسئول الصينى وتخلوا مؤقتاً عن مطالبتهم بفتح المدينة وأبحروا عائدين يجرون أذيال الخيبة على صفحة نهر بيرل .

وهكذا كانت سلطات المانشو ترسم سياستها على أساس تلافى أشد الخطرين فى اللحظة المعينة ، فإذا كان الخطر

الأجنبي وشيكاً فإنها تهادن الأجانب على حساب الشعب ، وإذا كان الخطر الشعبي كبيراً فإنها تحالف الشعب وتتجاهل تهديدات الأجانب . وظهر مثل شعبي يقول : « إن الشعب يخشى رجال الحكومة ، ورجال الحكومة يخشون الشياطين الأجانب ، والشياطين الأجانب يخشون الشعب » !

* * *

ولم يكن أهالى كانتون وحدهم هم الذين ضجوا من قسوة الأجانب وجشعهم ، وإنما عانى الشعب الصينى فى مجموعه أبلغ العناء من الآثار المدمرة لحرب الأفيون والمعاهدات غير المتكافئة التى ترتبت عليها .

فإن الغرامة الفادحة التى فرضت على الصين وفتح أبوابها للسلع الأجنبية أدى إلى استنزاف مواردها الاقتصادية واستمرار تدفق الفضة إلى الخارج ، وترتب على ذلك انهيار قيمة النقد وارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً وتحمل الشعب وحده هذا العبء . ويصف أحد المسئولين الصينيين الموقف فى تقرير رفعه إلى الإمبراطور فى عام ١٨٥٢ قال فيه :

« فى الأيام الخالية كان التايل من الفضة يساوى ألف قطعة

نحاسية ، أما فى هذه الأيام فإن التايل من الفضة يساوى ألفى قطعة نحاسية، وفى الأيام الخالية كان ثمن ثلاثة تو (٤٠ رطلا) من الأرز يكفى لدفع ضريبة واحد مو (½ أكر) من الأرض ويفيض منها شيء ، أما فى هذه الأيام فإن ستة تو لا تكفى لسداد هذه الضريبة ، وبالطبع فإن السلطات تحصل على القيمة الأصلية للضريبة، أى على الناس أن يدفعوا ضعفى ما كانوا يدفعونه من قبل ، وهؤلاء الذين لا يملكون القدرة على الدفع أصبح لا يحصيهم العد ، ويتعقبهم الجند وعمال الحكومة ليل نهار لإرغامهم على الدفع بجلدهم فى منازلهم الأمر الذى مزق جلودهم ودماءهم شر ممزق » !

وكان من أخطر أحكام معاهدة نانكينج ذلك النص على عدم تجاوز التعريفة الجمركية على الواردات ٥٪ من قيمة البضائع الواردة (وقد ظل معمولا بذلك حتى عام ١٩٢٨) وكانت له آثار سيئة للغاية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، فقد دمر الصناعات الوطنية فى الصين ، وحرمها من الحماية ، فى نفس الوقت أتاح فتح الموانئ الخمسة أمام التجارة الأجنبية فرصة غير محدودة أمام الإنجليز وحلفائهم لتصريف سلعهم فى أسواق الصين الشاسعة فعمت المنسوجات البريطانية جميع

أنجاء البلاد وتغلغلت إلى أصغر القرى الصينية لتدمر صناعات الفلاحين وتقوض مجتمعاتهم القائمة على الاكتفاء الذاتى .

ولم يقتصر الأمر على غزو البضائع الأجنبية للسوق الصينية بأثمان رخيصة لا تقاومها أسعار المنتجات الوطنية ولا تستطيع الصمود فى منافستها بل إن التجار والماليين الصينيين أنفسهم أقدموا على تشغيل أموالهم فى التجارة الأجنبية وسحبوا قروضهم للصناع الصينيين .

ولم يكن الصناع الصينيون وحدهم الذين أصابهم البوار من جراء المعاهدات غير المتكافئة ، وإنما هلك إلى جانبهم عشرات الألوف من أصحاب القوارب وحمالى الميناء وسائر العاملين فى البحر فى كانتون وشاطئ الصين الجنوبى ، إذ أن فتح موانئ صينية أخرى فى الشمال أمام التجارة الأجنبية قضى على احتكار ميناء كانتون لهذه التجارة مما ترتب عليه تعطيل عشرات الألوف من العاملين فى البحر وتشريد عائلاتهم وإجاعتها .

وترتب على المعاهدات كذلك سقوط احتكار نقابة الهونج للتعامل مع الأجانب والسماح لهؤلاء بالتعامل مع من يشاءون من التجار الصينيين مباشرة مما خلق طائفة من التجار المستفيدين من الاستعمار المتمتعين بحمايته عرفوا باسم « الكومبرادور » ،

وقد لعبت هذه الطائفة فيما بعد دوراً كبيراً فى التمكين للنفوذ الأجنبي فى الصين وخيانة الحركة الوطنية على طول الخط .

على أن أسوأ ما فى الأمر أن تجارة الأفيون أصبحت تجارة مشروعة تحميها المعاهدات الدولية ، وواصلت هذه التجارة الارتفاع بسرعة بالغة وهى تنخر نخاع الصين ، فبلغت فى عام ١٨٥٠ أكثر من ٥٢ ألف جوال كانت تشكل ٢٠ ٪ من مجموع دخل الحكومة البريطانية فى الهند وارتفعت فى عام ١٨٥٣ إلى ٨٠ ألف جوال ، وظلت تجارة الأفيون مشروعة فى الصين نتيجة لمعاهدة نانكينج حتى عام ١٩١٧ .

أما الامتيازات الإقليمية التى منحت للأجانب بمقتضى معاهدات نانكينج ووانجهيا ووامبوا وأهمها الإعفاء من القانون الوطنى فقد ظلت قائمة حتى عام ١٩٤٢ ، ولم يطبق القانون الصينى فعلا على الأجانب إلا بعد تحرير الصين عام ١٩٤٩ .

وكذلك فإن التنازلات الإقليمية التى منحتها حكومة المانشو للإنجليز وغيرهم من الأجانب استخدمت طوال قرن كامل من الزمان كقاعدة لمزيد من التغلغل والتوسع والنفوذ فى داخل الصين .

وهكذا كانت حرب الأفيون أساساً لعلاقات الصين

المستقبلة مع الغرب ، ومفتاحاً لفهم أغلب التطورات اللاحقة، ويكفى أنها خلقت عقدة كراهية الأجانب فى نفوس الصينيين ، وهى عقدة أكدتها الأيام فيما بعد .

* * *

وبعد حرب الأفيون ظهرت على المسرح الصينى ثلاث قوى تواجه كل منها الأخرى وتريد أن تعصف بغيرها . .

قوة الشعب الثائر الغاضب . .

وقوة الاستعمار الغشوم الضارى . .

وقوة المانشو والرجعية الداخلية . .

ولم تستطع قوة المانشو رغم دهائها وإمكانياتها أن تحول دون اصطدام القوتين الأخريين، ثم انتهت صراحة إلى الوقوف بجانب الاستعمار .

وكان الاستعماريون وقد ثبتوا أقدامهم على شاطئ الصين يريدون الاندفاع إلى الداخل للسيطرة على بقية الجنة البكر الموعودة .

وكان الشعب وقد هزته المآسى والنكبات ، وهصره الحقد والألم ، مصمماً على مقاومة تلك الموجة العاتية وإرغامها على الانحسار وراء الأفق من حيث أقبلت .

ولم يلبث أن حدث تطور خطير حدد بوضوح أين تقف كل قوة من القوى الثلاث ، الشعب والمانشو والاستعمار ، إذ اندلعت ثورة التايبنج العظيمة التى غيرت صورة الموقف تماماً ، وأصبحت إرهاصاً للثورة الصينية الكبرى التى غيرت مجرى تاريخ الصين والعالم فيما بعد .

٦ – ثورة التايبنج

أصبحت الصين كلها تغلى ، والصين دولة فلاحين ، وثورات الفلاحين هى أعنف الثورات ، لأن الفلاح بطبيعته أقدر على الصبر وتحمل المشاق والرضا بالكفاف ، فإذا ثار رغم ذلك فلأنه استنفد كل طاقته على الاحتمال ، وكل رجائه وأمله ، ولذا تأتى ثورته عنيفة مدمرة لأنها ثورة اليأس فى أبلغ مداه .

والصين فى منتصف القرن التاسع عشر كانت حبلى بالثورة ، كانت صدور الفلاحين تضطرم بالضيق والغضب ، ونفوسهم تضج بالتبرم والتمرد ، وبالرغم من القيود الإقطاعية الثقيلة ، ومن الجهل والفقر والمجاعة والمرض قام الفلاحون

الصينيون بأكثر من مائة هبة محلية فى الفترة بين عامى ١٨٤١ و ١٨٤٩ منها ٢٦ هبة فى عام ١٨٤٧ وحده .

ولكنها لم تكن أكثر من هبات عفوية كرد فعل لمظالم الإقطاع أو تعسف جباة الضرائب أو تحرشات الأجانب ، ولم تكن ثورات بالمعنى الدقيق ، فكانت تنتهى بتدخل الجند لسحقها ، وكثيراً ما كانت تبرد من تلقاء نفسها بعد أن يخبو أوار الغضب فى نفوس القائمين بها ، ولكنها مع ذلك لم تكن كلها مجرد اضطرابات بسيطة أو أعمالا للسلب والنهب والحرق ، بل أحياناً ما كان الفلاحون الثائرون يستولون على السلطة فى مناطقهم ويقصون عنهم الإقطاعيين ورجال الحكومة ، ويوزعون ما تزخر به مخازن الغلال على الجائعين والمحتاجين ، وقد يتكون مجلس شعبي لتصريف الأمور أو تنظم ميليشيا مسلحة للدفاع عن حكم الشعب ، وقد يستمرون فى حكم أنفسهم بأنفسهم أياماً وأسابيع ، ولكن بعد حين تنتهى مثل هذه الثورات المحلية إلى الفشل لقصور كفاءتها التنظيمية ، أو لضعفها العسكرى ، أو لعدم قدرتها على الامتداد وراء حدودها ، ويعود النظام القديم لينزل أبشع الانتقام بالشعب الذى جرؤ على التمرد ، وتبدأ ذرات الحقد والغضب تتراكم فى النفوس من جديد .

وانتشرت الجمعيات السرية فى كل أنحاء الصين بصورة لم يسبق لها مثيل وكانت هذه الجمعيات تنظم الفلاحين ، وتشحذ عزائمهم ، وتنور عقولهم من أجل أن يتكتلوا فى وجه الخطر المشترك ، و يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ، أو حماية مطالبهم والانتصار لضعفائهم .

ومن بين هذه الجمعيات التى لا يحصيها العد قامت فى كوانجى جمعية تسمى « ياى شانج تى هو » قدر لها أن تحرز انتصارات باهرة وتقوم بدور عظيم فى تاريخ الشعب الصينى .

كان مؤسس هذه الجمعية يدعى هونج هسيو شوان ، وكان مدرساً فى إحدى القرى ، ونشأ منذ طفولته يحمل مشاعر الكراهية لأسرة شينج الحاكمة ، وعندما كبر اصطدم بفساد المسئولين عن النظم التعليمية الكونفوشيوسية ، والمؤكد أنه كان على اتصال بإحدى الإرساليات التبشيرية ، إذ سرعان ما أعلن اعتناقه المسيحية ، وأطلق على نفسه لقب «شقيق المسيح الأصغر» وكون مع زميل له يدعى فنج يون شان هذه الجمعية السرية فى عام ١٨٤٣ ومعناها باللغة الصينية « جمعية عبادة الله » .

وإذا كانت التبشيرية المسيحية قد دخلت الصين تحقيقاً لنفس أهدافها المعروفة فى التمهيد للاستعمار ، والتمكين له ،

واستئناس الأهالى الوطنيين ، وترويضهم على الرضا بمصيرهم ، وإخضاعهم نفسياً لقبول التدخل الغربى الرأسمالى ، إلا أن هونج هسيو شوان ذلك الفلاح الصينى الذى يحمل فى أعماقه رواسب حضارة موغلة فى القدم استطاع أن يحول المسيحية إلى أداة ثورية خطيرة مستلهماً مبادئها الأصيلة ومازجاً روحها بالروح الشعبية الصينية المعادية للظلم والإقطاع وأفكار المساواة المطلقة بين البشر والتى عاشت فى تراث الشعب الصينى منذ آلاف السنين ، وبذلك لعب هونج هسيو شوان نفس الدور الذى لعبه زعماء الكفاح الأوربى ضد الإقطاع فى القرون السابقة مثل جون بول فى إنجلترا ، وتوماس مونيزر فى ألمانيا ، وجان هيس فيما يسمى الآن تشيكوسلوفاكيا .

قال هونج ، وبشر بين أنصاره ، إن فى مقدور الناس أن ينقلوا الفردوس من السماء إلى الأرض إذا استطاعوا إقامة دولة عادلة تقوم على المساواة يحيا فيها الجميع أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم بلا استغلال أو استبداد ، ألم يطرد المسيح المرابين من المعبد ؟ كذلك ينبغى أن يطرد المرابون والمستغلون والظالمون من هذا الفردوس الأرضى . . من مملكة السلام السماوية التى يدعو لها . . من « تايبنج تاين كوو » .

والتف حول هونج هسيو شوان عدد كبير من الأنصار والحواريين الذين اقتنعوا بدعوته . . وكانوا جميعاً من البروليتاريا الزراعية الفقيرة ، من الفلاحين وعمال المناجم ، فمنهم يانج هسيو شينج عامل الفحم المعدم ، وهسياو شاو كوى الحطاب الفقير ، وفنج يون شان المدرس القروى ، ووى شانج هو وشيه تاى كاى الفلاحان الأجيران ، وقد لمعت هذه الأسماء فيما بعد وتولت الزعامة السياسية والعسكرية فى دولة التايبنج بكفاءة مدهشة .

وفى ١٨٤٤ نقل هونج مركز نشاط جمعيته إلى كوانجسى حيث كان الصراع بين الفلاحين والسلطة الإقطاعية قد بلغ مدى لم يبلغه فى أى مكان آخر ، وكانت الهبات والاضطرابات وأعمال التمرد والعنف لا تكاد تنقطع فى يوم من الأيام ، وفى هذا الجو الثورى الخصب استطاعت « جمعية عبادة الله » أن توحد الجهود الثورية المبعثرة وتدخل عامل النظام الدقيق فى العمل الثورى الشعبى وانضم إليها أنصار كثيرون وأخذت قوتها تنمو فى سرعة مذهلة حتى أصبحت منظمة دقيقة فعالة ينبثق عنها جيش قوى .

وخلال أعوام قليلة تطورت الظروف سريعاً لصالح الجمعية ، إذ حدثت مجاعة كبيرة فى إقليم كوانجسى عام ١٨٤٩ ازدادت

بسببها مشاعر السخط والتذمر بين الناس ، وإذ ذاك رأى هونج أن الوقت أصبح ملائماً لإعلان الثورة ، فأمر أتباعه بالتجمع فى قرية شنتيان بمقاطعة كويبنج ، وفى ١١ يناير ١٨٥١ أعلنت الثورة رسمياً بإنشاء « مملكة السلام السماوية » واحتل جيش التايبنج يونجان بشمال كوانجسى ونقل إليها عاصمة المملكة .

وسارعت حكومة شينج بإرسال قوات ضخمة إلى يونجان لمحاصرتها وإخماد الثورة ، ولكن قوات التايبنج تمكنت من كسر الحصار فى أبريل ١٨٥٢ وتقدمت شمالا لاحتلال هانيانج وهانكاو وووشانج ، وفى مارس من العام التالى ضربت قوات التايبنج أسوار مدينة نانكينج بالألغام ، وأبادت ٢٠ ألف جندى من المدافعين عنها ، وسمتها تيان شينج ، ونقلت إليها عاصمة مملكة السلام السماوية .

وعلى طول هذا الزحف الطويل الظافر من كوانجسى إلى نانكينج كانت قوات التايبنج تعصف بكل أعداء الشعب .. عمال أسرة المانشو ، والأسياد الإقطاعيين المحليين ، وملاك الأراضى والمرابين ، وصادرت أموالهم وممتلكاتهم وقصورهم لتوزعها على الفلاحين فى كل منطقة تدخلها ، ولم تكن هذه

القوات لتعتدى على الأهالى أو تتحرش بهم، بل كانت تشعر بالانتماء إليهم وتخف إلى حمايتهم والدفاع عنهم مما جعلها تبدو نذيراً بالخلاص لملايين الفلاحين الصينيين الأشقياء فتجمعوا حولها متحمسين مؤيدين ، وأخذوا ينضمون إلى صفوفها بعشرات الألوف ، وبسرعة مذهلة ارتفع جيش التايبنج من عشرين ألفاً إلى أكثر من مليون مقاتل يزحفون بالرماح والفئوس والهراوات على أرجلهم ومواشيهم ، وتحت أعلامهم وبيارقهم كقوة جارفة تجتاح من يتصدى لها ، وتقهر أمامها كل شيء .

ومن الغريب أن حركة التايبنج هذه قامت فى نفس فترة العاصفة الديموقراطية الثورية التى هزت أوربا فى منتصف القرن التاسع عشر وكانت تحمل كثيراً من ملامحها وأفكارها ، وقد لاحظ ذلك المبشر المسيحى جو تسلاف الذى عاد من الصين إلى وطنه ألمانيا عام ١٨٤٩ ، وحين وقف على مجرى الأمور فيها قال إن الأفكار الاشتراكية للطبقة العاملة الأوربية تشبه إلى حد كبير تلك الأفكار المنتشرة بين رعاع الصين !

أما ماركس وأنجلز فقد أشادا فى مقال نشرته صحيفة « نيو راينيسن ريفيو » فى ٣١ يناير ١٨٥٠ بالثورة الشعبية الصينية وتساءلا قائلين : « من يدرى غداً عندما يبلغ رجعيونا

الأوربيون أسوار الصين فى هربهم إلى آسيا حيث قلعة الرجعية التليدة . . من يدرى أنهم لن يجدوا على أسوار الصين نقشاً يقول : هنا الجمهورية الصينية القائمة على الحرية والمساواة والإخاء !؟ »

وقد تحققت هذه النبوءة ولكن بعد قرن من الزمان !

* * *

« أينما تكن هناك أرض . . . فسوف نزرعها معاً
أينما يكن هناك أرز . . . فسوف نأكله معاً
أينما تكن هناك ملابس . . . فسوف نرتديها معاً
أينما تكن هناك نقود . . . فسوف ننفقها معاً
لن يكون هناك مكان لا يعرف المساواة
ولن يكون هناك من يشكو البرد أو الجوع » .

كان هذا هو شعار ثورة التايبنج الذى رفعته كهدف للإصلاح وطريق لتحقيقه ، وبمجرد أن استقر التايبنج فى تيان شينج (نانكينج) وجعلوها عاصمة مملكة السلام السماوية أعلنوا برنامجهم للإصلاح الزراعى استجابة لأمنية عزيزة لدى الفلاحين ، وفى الأصل كان هذا البرنامج يقضى بأن لكل ذكر أو أنثى يبلغ السادسة عشرة من عمره الحق فى الحصول على قطعة أرض ذات خصوبة متوسطة تكفيه ليحيا حياة عادية

كريمة : أما الأطفال دون السادسة عشرة فلهم الحق فى نصف قطعة من الأرض .

ولكن هذا البرنامج لم يوضع للأسف موضع التنفيذ بسبب الظروف الشاقة التى واجهت الثورة ، وما فرض عليها من حروب مستمرة ومقاومة مستميتة ، فبقى برنامج الإصلاح الزراعى أحلاماً لا سبيل إلى تحقيقها نظراً لافتقار الثورة إلى الكفاءة التخطيطية والاقتصادية والإدارية وفى وقت كانت فيه الأفكار الاشتراكية العالمية فى مهدها ولم يكن هناك نموذج عملى واحد يمكن أن يستهدى به زعماء التايبنج فى تنفيذ أفكارهم ، ولذلك ظلت هذه الأفكار آمالا وأمنيات وفشلت الثورة فى أن تقدم حلاً عملياً لمشكلة الصين الزراعية ، فاكتفت بتطبيق مبدأ « الأرض لزارعيها » فمن يزرع الأرض يملكها ولا جناح عليه فى أن يمتنع عن دفع الإيجار لمالكها الأصلى .

هذا المنحى التقدمى لأفكار ثورة التايبنج لم يظهر فى شىء قدر ظهوره فى موقف الثورة من المرأة ، فقد أحدثت الثورة انقلاباً شاملا فى مركز المرأة التى كانت مكبلة فى ذلك الحين بأغلال القرون الوسطى ، فأقرت ثورة التايبنج للنساء حق المساواة الاقتصادية والسياسية مع الرجال ، وحق الملكية الزراعية

والاشتراك فى الحكومة وشغل المناصب العامة . وعليهن واجب الخدمة العسكرية والقتال ، كما حرمت الثورة تلك العادة القبيحة المتخلفة وهى وضع أقدام الفتيات دون العاشرة فى أحذية حديدية لإعاقة نموها وتشويهها بحجة الجمال ، ومنعت نظام السرارى وأخذ الخليلات ، وألغت النظم الإقطاعية فى الزواج كشراء الزوجة أو الزواج بالمشاركة .

وكذلك ، عملت ثورة التايبنج على تطهير المجتمع من الأدران الداخلية فحاربت السرقة والفساد والدعارة وتدخين الأفيون ، وقد شهد بذلك دبلوماسى بريطانى زار مملكة التايبنج ، وعاد يقول إن الحياة والممتلكات تتمتع بأمن أكبر فى المناطق التى يحتلها التايبنج منها فى المناطق التى ما زالت تحت سيطرة حكومة المانشو .

* * *

والواقع أن الأجانب لم يخفوا فى أول الأمر إعجابهم بثورة التايبنج ووجدوا من حسن السياسة عدم مجابهتها بالعداء ، فهى قبل أى شىء قوة خطيرة معادية لحكومة المانشو التى لم تتخل عن صلفها وغرورها ، بل إن الأجانب علقوا آمالا كبيرة على هذه القوة النامية التى تدين بالمسيحية ، وظنوا أنها إذا نجحت

فى توحيد البلاد تحت سيطرتها سوف تفتح أبواب الصين أمام التجارة الأجنبية والبعثات التبشيرية ، وقام عدد كبير من الدبلوماسيين والمبشرين الأجانب بزيارة عاصمة التايبنج ، وعادوا ينادون بضرورة التفاهم مع الثورة ، ومن أوضح التحليلات لموقف الأجانب فى هذا الصدد تقرير وضعه المبشر البريطانى مدهرست ورفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية وفيه يقول :

« إن الفوائد التى يمكن أن نجنيها من نجاح الثوار هى فتح البلاد للمشروعات الدينية والتجارية ، وإدخال التحسينات العلمية التى سوف تفيد المانح والممنوح ، وإنه لمن المحزن أن نرى الدول المسيحية تتدخل لإخماد هذه الحركة لأن الثوار يملكون القدرة والاستعداد للتقدم والإصلاح بوجه عام على نحو لا يتمتع به الملكيون وليس من المتوقع أن يتمتعوا به ، ومن المحتمل إذا تدخلت الدول الأوربية مع الجانب الآخر أن تجد نفسها مشتبكة فى حرب مع أناس أقوى منها ، أما إذا تمكن الملكيون بدون مساعدة الأجانب من هزيمة الثوار (وهو أمر ضعيف الاحتمال) فسوف يزدادون صلفاً وصفاقة عن أى وقت مضى » .

ويمضى كاتب التقرير فى اقتراح السياسة الواجب اتباعها قائلا :

« إن السياسة الوحيدة التى تبدو مقبولة فى الوقت الحاضر أن نتوقى المزيد من الانغماس فى النزاع ، ونتجنب أى ارتباطات رسمية مع أحد الطرفين ، ولكن ينبغى على الأجانب مع ذلك أن يكونوا على استعداد بقوة كافية لمقاومة أى هجوم يشنه عليهم الثوار قاصدين تدميرهم » .

وقد عرفت هذه السياسة بسياسة « الحياد » والتزمتها بعض الوقت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وغيرها من الدول الأوربية إزاء الحرب الأهلية الصينية ، غير أن الأحداث أثبتت أن ذلك الحياد كان حياداً زائفاً سداه ولحمته النفاق ، فلم يكن المقصود به مطلقاً اتخاذ موقف عدم التدخل فى الشئون الداخلية للصين وترك مصيرها بين أيدى أبنائها يقررونه كما يشاءون ، وإنما كان هدفه الوحيد اتخاذ موقف الانتظار والتربص لمعرفة كيف تسير الأمور وانتهاز الفرصة المناسبة التى ينفذون منها إلى مراكز القوة .

ولكن ثورة التايبنج خيبت آمال الدول الأجنبية إلى أقصى حد . فقد كان المأمول أن تكون أكثر ليونة من حكومة المانشو فى التعامل مع الأجانب باعتبارها قوة وليدة فى حاجة إلى تأييد خارجى كما أنها تدين بالمسيحية ولم تقم أصلا كحركة ضد

التدخل الأجنبي كما كانت عليه المقاومة فى كانتون ، ولم يفطن الأجانب إلى أن رجال التايبنج كانوا وطنيين ثوريين فى المحل الأول وأنهم ما قاموا بثورتهم العارمة إلا إنقاذاً لروح الصين الأصيلة وتحريراً لبنى جلدتهم من كل قوى الظلام ، ولذلك لم ينخدعوا فى تودد الأجانب إليهم ، ولم يتورطوا فى أية وعود لهم ، بل إنهم أوضحوا منذ البداية عزمهم على عدم التفريط فى أى حق من حقوق الوطن ، وعندما زارهم الوزير البريطانى للحصول على اعترافهم بمعاهدة نانكينج أبلغوه أنهم يرحبون بالتجارة مع الدول الأجنبية ، ولكنهم يصرون على تحريم تجارة وتدخين الأفيون ، وكذلك أكدوا نفس الشىء لوزيرى الولايات المتحدة وفرنسا ، وكانت السياسة الخارجية لدولة التايبنج تقوم باختصار على أساس المساواة بين الدول ، وحرية التجارة الدولية ، وتحريم الأفيون تحريماً مطلقاً ، ولذلك لم يلبث أن دب الفتور والبرود سريعاً فى العلاقات بين التايبنج والأجانب .

* * *

بعد أن استقر الأمر لثورة التايبنج فى نانكينج أصبحت الصين تنقسم فى الواقع إلى دولتين تقوم بينهما حرب أهلية لا تنقطع . . فى الشمال دولة المانشو التى تمثل مصالح الأسرة

الإمبراطورية والإقطاعيين وكبار الموظفين والقادة العسكريين ، وفى الجنوب دول التايبنج أو مملكة السلام السماوية التى انبثقت عن الشعب الثائر . . عن الفلاحين والحرفيين والجند ، والتى تعكس فى نفس الوقت كل قوة هؤلاء وكل ضعفهم وتناقضاتهم.

وحاولت دولة التايبنج التوسع شمالا وغرباً لتوحيد كل الصين تحت رايتها والقضاء على الرجعية السياسية والاجتماعية قضاء مبرماً، فأرسلت حملتين إحداهما إلى الشمال للاستيلاء على بكين توطئة لنقل عاصمة التايبنج إليها ، والأخرى إلى الغرب لتحرير بقية المدن الاستراتيجية على نهر اليانجتسى ، ونجحت الحملة الأخيرة بالفعل فى احتلال نانكينج ونانشانج ووشانج .

أما الحملة الأولى فقد قامت فى مايو ١٨٥٣ تحت قيادة لين فنج هسيانج ولى كاى فانج، وكانت تضم ٢٠ ألف مقاتل أخذت قوتها تتزايد على طول الطريق بفعل التأييد الشعبى الساحق الذى لقيته من الفلاحين ، ونجحت الحملة فى كسب معارك عديدة ، واستطاعت أن تحتل فى مدة لا تتجاوز خمسة أشهر أقاليم أنهوى وهونان وشانس ثم دخلت شيهلى (هو بيه فيما بعد) ووصلت إلى أبواب تيان تسين التى تعد مدخلا مباشراً للعاصمة الإمبراطورية بكين ، وهنا أسقط فى يد الإمبراطور

هسيين فنج وبدأ يستعد للهرب بأسرته وأمواله .

ولكن كل القوى الرجعية فى الصين لم تلبث أن تضافرت للدفاع عن بكين ، وكوّن الإقطاعيون جيوشاً خاصة يقودونها بأنفسهم لمساعدة جيش المانشو المحاصر ، وتوحدت الجيوش الإقطاعية فى قوة واحدة فعالة يتزعمها الإقطاعى العسكرى تسينج كوفان ، وهو رجل رغم رجعيته العتيدة لا يشك أحد فى مقدرته وكفاءته ، ونجحت القوى الرجعية فى الصمود لقوات التايبنج فى تيان تسين ، وأخطر من ذلك أنها تمكنت من قطع خطوط مواصلاتها مع نانكينج مما تعذر معه وصول إمدادات إلى جيش التايبنج فأقام حيث هو لا يستطيع التقدم أو الانسحاب أكثر من عامين تخللتهما معارك عنيفة استشهد فيها الكثيرون من جنود التايبنج وقادتهم ومنهم لين فنج هسيانج ولى كاى فانج .

وأخذ الصراع يشتد يوماً بعد يوم بين قوات التايبنج وقوات الثورة المضادة بزعامة تسينج كوفان فى أنحاء متفرقة من البلاد ، وأحرزت قوات التايبنج انتصارات عديدة أهمها النصر الحاسم على القوات الرجعية بقيادة كوفان نفسه فى معركة دارت بالقرب من بحيرة بويانج واستخدم فيها الثوار أسهم النار الليلية لأكثر

من شهر ، واضطر تسينج كوفان إلى الفرار نجاة بنفسه بعد انهيار قواته .

وقد واكبت ثورة التايبنج ثورات أخرى فى مناطق متفرقة من أنحاء الصين الشاسعة ، واتخذت تلك الثورات من ثورة التايبنج مثلا تقتدى به ونموذجاً تحتذيه ، فقام فلاحو ناين بثورة فى كيانجسو وانهوى وشانتونج وهونان واستطاعوا الاتصال بجيش التايبنج ، وقد اتسم فرسان الناين بالشجاعة الخارقة فكانوا يقتحمون نيران العدو بخيولهم وسيوفهم وسهامهم فيفرقون صفوفه ، وفى عام ١٨٦٥ حاصرت قوات الناين مقر قوات الحكومة وقطعت عليها خطوط الإمداد وأبادتها عن بكرة أبيها ، وشعرت حكومة شينج بالخطر الشديد فكرست جزءاً كبيراً من قواتها لإخماد فتنة الناين ، ولم تتمكن من ذلك إلا بمساعدة القوات الأجنبية فى عام ١٨٦٨ .

وكذلك قام المسلمون الصينيون فى يونان والشمال الغربى من الصين بثورة عنيفة ضد حكومة شينج احتجاجاً على التفرقة فى المعاملة وثقل الضرائب ، واستطاع أحد جيوشهم احتلال تالى فى وسط يونان وإنشاء قاعدة فيها ولم تستطع الحكومة إخماد ثورتهم قبل عام ١٨٧٣ .

وفى سينكيانج قامت ثورات أخرى ضد حكومة شينج من أجناس متعددة ، وسارت كل هذه الثورات التى قامت بها الأقليات المختلفة جنباً إلى جنب مع ثورة التايبنج مما دل على وحدة مصالح الشعب الصينى الذى كان يواجه عدواً مشتركاً هو الرجعية المتحالفة مع الاستعمار .

ولكن الرجعية الصينية كانت تشبه الهيدرا ذات الألف رأس ، فكلما قطع رأس منها نبتت مكانه عدة رءوس . وكانت التربة الصينية ما زالت مهيأة فى أعماقها لدعم الرجعية رغم الموجة الثورية التى أطلقتها على السطح ثورة التايبنج ، ولذلك لم يفقد الرجعيون الأمل بل تشجعوا بفك الحصار عن بكين وواصلوا تجميع صفوفهم ، وإغلاق ما بينها من ثغرات ؛ استعداداً لمعارك أخرى فاصلة مع جيوش الشعب المتمرد .

وكما يحدث فى كثير من الثورات العظيمة غير الناضجة بدأت المنازعات الداخلية تجد طريقها إلى زعماء ثورة التايبنج ، فبعد أن تحولت الثورة إلى دولة — أو شبه دولة فى الواقع — باستقرارها فى نانكينج بدأ الصراع الخفى على النفوذ يتسلل إلى قادة الثورة الذين تسرعوا فى اقتسام المكاسب والمناصب ، وكان أحدهم ويدعى يانج هسيو شينج هو القائد الفعلى المنتصر



لقوات الثورة منذ عام ١٨٥١ ، وقد استطاع أن يحرز قوة ونفوذاً بمساهمته الثمينة فى الحركة الثورية ، ولكن ذلك جعله مغروراً ومتغطرساً، وأراد أن يفرض نفسه وصيًّا على الثورة ، وفى عام ١٨٥٦ دب الخلاف بين يانج هسيو شينج وهونج هسيو شوان زعيم الثورة الأصلى ورائدها الروحى ، وطلب يانج من هونج أن يخاطبه بلقب « جلالتك ! » فأعطى هونج أوامر سرية إلى وى شانج هوى أحد زعماء الثورة الآخرين باغتيال « يانج » المتغطرس ، وبعد ذلك قتل « وى » أيضاً وفتتت هذه المؤامرة السرية وحدة القيادة الجماعية للثورة ، وبدأ القادة يتحزبون ويتآمرون فيما بينهم ، وانشق « شيه تاكاى » وهو جنرال قدير ، ورحل عن نانكينج بقواته إلى الجنوب الغربى من الصين ، وكان انشقاق « كاى » ضربة عنيفة أضعفت دولة التايبنج سياسيًّا وعسكريًّا .

وكانت هذه المنازعات الداخلية هى الصخرة التى تحطمت عليها دولة التايبنج فى النهاية ، والثغرة التى نفذت منها القوى الرجعية لضرب الثورة فيما بعد !

* * *

كانت ثورة التايبنج ثورة فلاحية كبرى نجحت فى

الإستمرار والبقاء فى الحكم زهاء أربعة عشر عاماً ، وسيطرت على سبعة عشر إقليماً من أقاليم الصين الواحد والعشرين ، وقد لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الشعب الصينى بحيث لا يمكن اعتبارها حدثاً عادياً عابراً ، ولو كان قد كتب لها النجاح لغيرت كل تاريخ الصين والعالم .

وتختلف الآراء فى تقدير قيمة هذه الثورة فبينما يعتبرها البعض ثورة عظمى من ثورات التحرر الوطنى وحركة تقدمية شعبية سابقة لأوانها ، وعلى هذا الرأى الكتاب الصينيون المحدثون ، نجد آراء أخرى تستهجن الثورة وتراها حركة فوضى وهدم لم يسبق لها مثيل ، قام بها مشعوذ مأفون جرياً وراء مجده الشخصى ، ومن هذا الرأى جواهر لال نهرو الذى نراه جرياً على نغمة الكتاب الغربيين يصف ثورة التايبنج قائلا :

« وثورة التايبنج التى تعتبر من أفظع وأبشع الثورات التى ظهرت فى الصين قد بدأها أيضاً مرتد اعتنق المسيحية على أيدى المبشرين ، وقد قام بها عام ١٨٥٠ شخص مجنون يدعى " هونج هسيو شوان " .. فهذا المشعوذ الدينى نجح نجاحاً بعيد المدى وانطلق فى كل مكان يدعو إلى الحرب صائحاً " اقتلوا عباد الأوثان " ونتيجة لذلك قتلت جموع كثيرة ، وقد خربت

هذه الثورة أكثر من نصف الصين ، وقدر عدد من راح ضحيتها خلال اثنى عشر عاماً تقريباً بنحو عشرين مليوناً من السكان . وليس من العدل في شيء أن نحمل المبشرين المسيحيين والدول الأجنبية وزر هذه الثورة ومن قتلوا بسببها ، وإذا كان يبدو أن المبشرين باركوها فى أول الأمر فإنهم فيما بعد أنكروا هونج هسيو شوان . . ومن الغريب المدهش أن ثورة يقودها متعصب دينى مجنون يتاح لها كل هذا النجاح قبل القضاء عليها نهائياً »[1].

ومن الغريب أن يصدر هذا الرأى من رجل مثل نهرو كان هو نفسه زعيماً عظيماً لإحدى ثورات التحرر الوطنى الآسيوى الكبرى ، ولكن نهرو ظلم ثورة التايبنج لأنه قاسها بمقاييس عصره لا بمقاييس عصرها ، فلم يكن أمام هذه الثورة سوى العنف والدم ترد بهما على الأوضاع المجحفة التى فرضها الإقطاع على الشعب الصينى ، أما إغراقها فى التهوس الدينى فلم يكن مستغرباً أيضاً فى منتصف القرن التاسع عشر ، بل إن معظم الثورات التى قامت فى العالم المتخلف فى ذلك الوقت كانت

---

(١) لمحات من تاريخ العالم — رسائل نهرو إلى ابنته — الرسالة ١١٤ ترجمة الدكتور عبد العزيز عتيق — مكتبة الثقافة الشعبية — ١

تحمل طابعاً دينياً يصل إلى حد الشعوذة . ونحن نعرف ذلك بصفة خاصة فى شرقنا العربى ، فقد كانت الثورات العربية فى القرن الماضى تحمل طابعاً دينياً قوياً ومنها الثورة العرابية نفسها ، دعك من الثورة السنوسية أو المهدية ، فإذا لجأت ثورة تقوم بين كتل الفلاحين الصينيين فى القرن التاسع عشر إلى إثارة الحمية الدينية فليس ذلك مما يؤخذ عليها ، أما اعتناقها الدين المسيحى فقد كان ذلك رد فعل طبيعياً لفساد ما وصلت إليه تعاليم كونفوشيوس التى أصبحت فى الواقع مطية ذلولا للفكر الإقطاعى وأداة لإخضاع الشعب وإذلاله ، فكان من الطبيعى أن يلجأ الثائرون على النظام الإقطاعى إلى فكرة مخالفة ، لا سيما إذا كانت هذه الفكرة تبشر بالمساواة والإخاء على النحو الذى كانت عليه التعاليم المسيحية فى عهدها الأول لا فى عهد المستعمرين الأجانب المحدثين .

إنما ينبغى الحكم على ثورة التايبنج من زاوية ما أنجزته من مهام وما قدمته للصين وشعبها من فوائد . ومن هذه الزاوية لا مراء فى أن ثورة التايبنج نجحت فى زلزلة أسس الإقطاع وحكم المانشو ، وأثبتت أن هذه الأسس ليست وطيدة خالدة وإنما يمكن القضاء عليها واقتلاعها ، ففتحت بذلك الطريق إلى التغيرات الحتمية التالية فى المجتمع الصينى ، ومهدت لقيام

الثورة الصينية الكبرى ، وفى نفس الوقت حمت ثورة التايبنج الصين من أن تصبح مستعمرة صريحة للأجانب، لأنها نجحت فى صد الموجة الاستعمارية التى كانت تضرب شاطئ الصين بقوة بعد حرب الأفيون الأولى ، وفى الوقت الذى كان فيه المستعمرون الأجانب يظنون أنهم فتحوا أبواب الصين بإذلال حكام المانشو وإرغامهم على توقيع المعاهدات غير المتكافئة انبرى الشعب الصينى يدافع عن بلاده ويقيم من جسده سداً منيعاً فى وجه تقدمهم مما أشعر الأجانب أنهم إذا أرادوا احتلال الصين فإن ذلك لن يكلفهم هزيمة قواتها النظامية وقوادها الإقطاعيين وحكامها الرجعيين فحسب ، وإنما يستلزم فى المحل الأول إخماد الروح الثورية الكامنة فى نفوس مئات الملايين من الفلاحين الصينيين الذين يبدون فى الظاهر وكأنهم ليسوا على شىء من القوة ولكنهم يملكون بالفعل طاقة تمكنت باندلاع ثورة التايبنج من زلزلة النظام المستقر منذ عشرات القرون .

غير أن ثورة التايبنج باعتبارها ثورة فلاحية أولا وأخيراً كانت تحمل بذور ضعفها فى داخلها ، فقد كانت الثورة تفتقر إلى زعامة البروليتاريا الصناعية أو تعاونها على الأقل ، والسبب فى ذلك أن طبقة العمال الصينيين لم تكن قد نشأت

بعد ، وكان ذلك من أمضى عوامل ضعف الثورة وعدم صلابتها .

وكذلك لم تكن الثورة ذات أفكار واضحة ناضجة بل كانت أقرب إلى ترديد الشعارات منها إلى العمل الثورى المدروس ، وكانت الأفكار الاشتراكية فى أوربا نفسها فى ذلك الحين لا تزال فى مرحلة الطفولة المبكرة بحيث لا يأمل أكثر المتفائلين فى وضعها موضع التنفيذ . ولذلك فشلت ثورة التايبنج فى تنفيذ معظم برامجها الإصلاحية وعلى رأسها إيجاد حل للمشكلة الزراعية فظلت أغلب مبادئها حبراً على ورق .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك مأساة الانقسام الداخلى بين زعماء الثورة وصراعهم على السلطة والنفوذ لعرفنا أن ثورة التايبنج كانت تحمل فى داخلها بذور فشلها باعتبارها حركة ثورية عظيمة غير ناضجة مما أدى بها فى النهاية — وبالرغم من كل آيات البطولة التى أبداها الشعب الصينى — إلى الترنح تحت الضربات العنيفة التى كالتها لها الرجعية الداخلية والاستعمار الخارجى .

حرب الأفيون الثانية

لم يكن الوقوف على الحياد الذى تظاهرت به الدول الأجنبية إزاء الحرب الأهلية الدائرة فى الصين إلاتعبيراً عن سياسة انتهازية صريحة ، فقد آثرت الدول الأجنبية أن ترقب الموقف عن كثب دون أن تتوسط فى تأييد أحد الطرفين ومعاداة الآخر حتى تحين الفرصة المناسبة لابتزاز مزيد من المكاسب سواء كانت الحكومة القائمة هذه أو تلك . ويكفى ، على أية حال ، أن الحرب الأهلية الدائرة بين المانشو والتايبنج من شأنها إضعاف الصين كقوة وطنية وهذا يجعلها أكثر استعداداً لإرضاء الأجانب وإجابة مطالبهم .

ولكن بريطانيا والدول الأجنبية الأخرى لم تستطع الثبات طويلا على هذا الحياد المزعوم ، فالحياد يتطلب قدراً من عدم التدخل فى الشئون الداخلية — وسرعان ما ألقت الدول الأجنبية بكل ثقلها فى خضم السياسة الداخلية للصين حين بدأت تطالب بتعديل اتفاقيات حرب الأفيون الأولى .

فى عام ١٨٥٣ اقترحت بريطانيا على الولايات المتحدة القيام بعمل مشترك فى الصين لإرغامها على فتح كل أسواقها

للتجارة الأجنبية ، وفى العام التالى قدم الوزير الأمريكى فى الصين روبرت ماكلين طلباً إلى « يى ليانج » نائب الملك فى ليانج كيانج بتعديل الاتفاقيات ، ورفع يى ليانج تقريراً إلى الإمبراطور قال فيه إن روبرت ماكلين أبلغه أنه « إذا أجيبت هذه المطالب فإن الولايات المتحدة سوف تخف إلى مساعدة الصين فى إخماد التمرد ، وإلا فإننى سوف أبلغ كل شىء إلى حكومتى وأترك الأمر يأخذ مجراه » .

ولم يلبث أن تقدم الممثلون الدبلوماسيون للدول الثلاث بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا فى عام ١٨٥٤ بطلب مشترك لتعديل الاتفاقيات ، وكانت المطالب الأساسية التى تقدم بها الإنجليز هى : (١) فتح كل المناطق الداخلية فى الصين بالإضافة إلى جميع المدن الواقعة على الشاطئ للتجارة البريطانية ، وفى حالة رفض هذا الطلب فإن بريطانيا تصر على حرية الملاحة فى نهر يانجتسى وإضافة شينكيانج ونانكينج ونيشو وهانجشو إلى موانئ المعاهدة . (٢) مشروعية تجارة الأفيون . (٣) إلغاء رسوم الترانسيت الداخلية على البضائع البريطانية . (٤) السماح للمبعوثين الأجانب بالإقامة فى بكين أو على الأقل السماح لهم بالاتصال رأساً بالمسئولين المركزيين فى حكومة

المانشو لا الاقتصار على الاتصال بنواب الملك المحليين فقط . أما المطالب الأمريكية فكانت (١) السماح للممثلين الدبلوماسيين الأمريكيين بالإقامة فى بكين . (٢) رفع جميع القيود المفروضة على التجارة الأمريكية فى الصين . (٣) إلغاء جميع القيود على نشاط الأمريكيين .

وأصبحت حكومة المانشو فى مأزق . . فها هو الشعب ينتفض فى ثورة مسلحة عارمة للقضاء على النظام القائم واقتلاعه من جذوره ، وها هم الأجانب يتقدمون تحت تهديد السلاح بمطالب مهينة تسلب الصين سيادتها وتضعف من موقف الحكومة ذاتها ، وشعر حكام المانشو أنهم وصلوا إلى نقطة اقتران المتاعب الداخلية بالخطر الخارجى الذى يهدد مركزهم ووجودهم كله ، فما الذى يمكن أن يفعلوه ؟

كان حكام المانشو يتبعون كما تقدم سياسة ذات وجهين تتذبذب بين ممالأة الشعب أو الأجانب اتقاء لأشد الخطرين فى اللحظة المعينة ، وكان من الواضح فى الموقف الحالى أن خطر التايبنج أكبر من خطر الأجانب لأنهم يهددون باقتلاع النظام السياسى والاجتماعى من أساسه ، ولم يعد الأمر مجرد مقاومة للأجانب كما حدث عندما رفض أهالى كانتون فتح المدينة ،

ولذلك قررت حكومة المانشو أن لا تهادن الثوار مهما كان الثمن ولو اضطرت إلى إرضاء الأجانب وإجابة مطالبهم حتى يتسنى لها المضى فى محاربة الثوار إلى النهاية ، أليست مهادنة الأجانب من شأنها أن تجلب صداقتهم وبالتالى مساعدتهم فى القضاء على ثورة التايبنج ؟

وقام المسئولون فى شنجهاى بتقديم النماذج الأولى لسياسة المهادنة الجديدة مع الأجانب ، وكانت حركة المقاومة الشعبية فى شنجهاى التى تقوم بها « جمعية السيف الصغير » قد بلغت مداها وبدأت تنتهج نهج التايبنج قبل وصول قوات التايبنج إلى منطقة شنجهاى ، ولذلك قام « وو شين شانج » حاكم شنجهاى بالتنازل للأجانب عن حق اقتضاء الرسوم الجمركية ، فتكونت فى عام ١٨٥٤ لجنة ثلاثية من بريطانى وأمريكى وفرنسى يعينهم قناصلهم للإشراف على مرفق الجمارك فى ذلك الميناء الصينى الهام .

وبعث حاكم كيانجسو مذكرة إلى البلاط الإمبراطورى ينصح فيها بإجابة مطالب الأجانب فى تعديل المعاهدات بعد محادثات أجراها مع الوزير الأمريكى ماكلين ، وجاء فى المذكرة :

« إن ماكلين يتمسك بشدة بالنص الوارد فى معاهدة ١٨٤٤ والذى يقضى بتعديل المعاهدة بعد انقضاء ١٢ عاماً على توقيعها ، وقد أعرب ماكلين عن رغبته فى فتح جميع الموانئ المطلة على نهر يانجتسى حتى هانكاو ، ويبدو أن ليس ثمة مخرج من هذا الموقف ، ولذلك فإن من الأفضل أن نراعى الظروف ونعين مسئولا كبيراً محلا للثقة يتولى التفاوض مع الوزير الأمريكى وإجابته إلى طلبه » .

وفى أكتوبر ١٨٥٤ أبحر المبعوثان البريطانى والأمريكى شمالا إلى تاكو وطلبا الدخول فى مفاوضات مباشرة مع حكومة بكين حول تعديل المعاهدات ، وعينت بكين من جانبها مسئولا يدعى شونج لن لإجراء المفاوضات وزودته بما يكفى من إرشادات لمراعاة خاطر الأجانب ، والعمل على تهدئتهم .

ولكن المفاوضات — رغم ذلك — انتهت إلى الفشل لأن المانشو ترددوا فى إجابة كل المطالب الأجنبية ، ولم تكف التنازلات الجزئية التى عرضوها لإشباع نهم بريطانيا والولايات المتحدة .

وصممت الدول الأجنبية على إرغام حكومة المانشو بالقوة على قبول كل مطالبها فى تعديل المعاهدات ، ولكن بريطانيا

وفرنسا شغلتا فى حرب القرم بين عامى ١٨٥٤ و ١٨٥٦ فلم تتمكنا من إرسال قواتهما إلى الشرق الأقصى ، وما إن انتهت الحرب حتى بدأت الدولتان تتلمسان أوهى الأعذار لإعلان الحرب على الصين .

وحدث أن استولت السلطات الصينية فى كانتون على سفينة قرصنة صينية ترفع العلم البريطانى تسمى « السهم » بتهمة تهريب أفيون إلى الميناء ، فقدم القنصل البريطانى احتجاجاً عنيفاً إلى السلطات طالباً إطلاق سراح بحارة السفينة والاعتذار عن الحادث ، زاعماً أن السفينة بريطانية ، وحتى إذا لم تكن كذلك فيكفى أن ترفع العلم البريطانى لتتمتع بالحماية ، ولما رفضت السلطات هذا الطلب غير المعقول أرسلت بريطانيا أسطولا شق طريقه فى نهر بيرل وقصف كانتون بالقنابل .

وكذلك انتهزت فرنسا فرصة مقتل أحد رجال إرسالياتها التبشيرية فى كوانجسى فى ديسمبر ١٨٥٧ وأعلنت الحرب على الصين ، وضممت قواتها إلى القوات البريطانية المحاربة .

وسقطت كانتون فى أيدى القوات الأنجلو فرنسية . .

ثم أبحرت القوات الغازية شمالا بحذاء الساحل فاحتلت قلاع تاكو بالقرب من تيانتسين . وفى يونيو ١٨٥٨ اضطرت

حكومة شينج إلى توقيع اتفاقية تيانتسين المهينة ، ونصت الاتفاقية على فتح نيو شوانج وتنجشاو وتايوان وتانشيو وهانكاو ونانكينج وشينكيانج للتجارة الأجنبية ، وإقرار حرية الملاحة في نهر يانجتسى للسفن التجارية الأجنبية وحق الأجانب فى التجارة داخل الصين نظير تعريفة جمركية موحدة لا تتجاوز ٢,٥٪ ، وحرية الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية فى نشر معتقداتها فى الداخل ، وحرية الأجانب فى السفر والتجارة والإقامة داخل البلاد بما فى ذلك بكين ، وحق السفن الأجنبية فى زيارة موانئ المعاهدة فى أى وقت تشاء ، وحق الأجانب فى استخدام العمال الصينيين فى مناطق بعيدة ، وكان ذلك بداية لتجارة الكولى التى سيق بمقتضاها ملايين الصينيين للعمل فى ظروف أشبه بالرق فى غابات ومناجم الملايو وخلدونيا الجديدة وغرب الولايات المتحدة . وبالإضافة إلى كل ذلك فرضت الاتفاقية على الصين غرامة حرب قدرها ستة ملايين تايل من الفضة . . مليونان للبريطانيين ، ومثلهما للفرنسيين ، ومليونان آخران للتجار الأجانب فى الصين تعويضاً لهم عن أية خسائر محتملة قد تلحق بهم فى المستقبل !

ولكن حكومة المانشو ترددت فى التصديق على معاهدة

تيانتسين لا لشدة شروطها بوجه عام وإنما لتورطها فى السماح للأجانب بالإقامة فى بكين ، فإن معنى ذلك أن الشعب سوف يحتقر البلاط الإمبراطورى لتخليه عن تقاليده العريقة فى عدم السماح للأجانب بدخول بكين ، ولذلك ما إن أخلت القوات الأنجلو فرنسية تيانتسين معتمدة على توقيع المعاهدة حتى بدأت حكومة المانشو تتمحك محاولة تجديد المفاوضات لإلغاء النص الخاص بإقامة الأجانب فى بكين ، ولكن الدول الأجنبية لم تكن لتسمح بذلك بالطبع ، فسارع الوزيران البريطانى والفرنسى بالوصول إلى تاكو وأبديا رغبتهما فى الوصول إلى بكين للمطالبة بتبادل وثائق التصديق على معاهدة تيانتسين ، وحاولا مواصلة السير على رأس ثلة صغيرة من القوات إلى بكين ، ولكن الضابط الصينى المكلف بقلاع تاكو أمر بإطلاق النار على السفن الحربية الأجنبية التى تحاول أن تشق طريقها بالقوة فى النهر ، فأنزل بها خسائر جسيمة واضطرها إلى الانسحاب ، فتجدد بذلك القتال مرة أخرى ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على الصين من جديد .

وفى عام ١٨٦٠ أعادت القوات الأنجلو فرنسية احتلال تيانتسين ، وواصلت تقدمها شمالا وهى تنشر الموت والخراب

فى القرى الصينية الآمنة متجهة إلى بكين ، ففر الإمبراطور إلى جيهول ، وما هى إلا أيام حتى اقتحمت القوات الأجنبية العاصمة الإمبراطورية واستباحتها لوحشيتها وبربريتها فدمرت المنازل والأحياء ، وأشعلت الحرائق ، ونهبت المتاجر واغتصبت النساء ، ولم تفرق فى بطشها بين رجل وطفل ، أو بين امرأة وكهل ، بل لم ينج الفن والجمال ، فدمرت قصر الصيف الإمبراطورى المسمى « يوان منج يوان » وكانت له شهرة عالمية كآية من آيات الفن البديع ، ونهب ممثلو حضارة الغرب التحف والرياش التى يزخر بها القصر ، ودكوا عاليه سافله ، حتى أصبح أثراً بعد عين تشهد عليه بضعة حيطان خربة بين أكوام من الركام ، فضربوا بذلك مثلا عملياً على مدى تقديرهم للفن !

ولم تحاول حكومة المانشو مقاومة الأجانب أو استرجاع بكين بل جثت على قدميها تطلب المغفرة وتقدم المعاذير ، فوقعت مع بريطانيا وفرنسا اتفاقيتين فى بكين أيدتا نصوص معاهدة تيانتسين ، وضمت تيانتسين نفسها إلى مدن المعاهدة وتنازلت عن جزء من مدينة كولون لبريطانيا ، وضوعفت غرامة الحرب لكل من الدولتين الظافرتين إلى ٨ ملايين تايل من الفضة .

وهنا طلبت الولايات المتحدة وروسيا القيصرية اللتان لم تشتركا فى حرب الأفيون الثانية اشتراكاً فعلياً التمتع بنفس المزايا العينية التى منحتها حكومة المانشو للإنجليز والفرنسيين بمقتضى شرط الدولة الأكثر رعاية وأجيبتا إلى طلبهما !

ومن العجب أن اتفاقيات بكين وتيانتسين غير المتكافئة أنهت إلى الأبد صفحة العداء بين حكومة المانشو والاستعمار الأجنبي بدلا من أن تزيد حدة العداء ، فكان ذلك مصداقاً للمثل القائل « لا محبة إلا بعد عداوة » فلم تعد حكومة المانشو بحاجة إلى تطبيق سياستها المزدوجة فى ممالأة الأجانب أو الشعب طبقاً لقوة كل من الجانبين وقدرته على تهديدها ، وكذلك لم يعد الأجانب بحاجة إلى تطبيق سياستهم المزدوجة فى التذبذب بين صداقة المانشو والتايبنج ليحصلوا على أكبر قدر من الغنيمة ، وإنما وضع الأجانب أيديهم فى أيدى المانشو ، ووضع المانشو ثقتهم فى الأجانب ، وبدأ الطرفان وهما يقفان فى صف واحد يوليان وجههما نحو عدوهما المشترك . . ثورة التايبنج الشعبية .

والواقع أن حكومة المانشو كانت من الخبث والدهاء بحيث ضمنت اتفاقياتها مع الأجانب نصوصاً تلزم القوى الأجنبية باتخاذ إجراء ضد التايبنج إذا أرادت سريان هذه الاتفاقيات ،

أو بمعنى آخر تكاد تكون هذه الاتفاقيات فى شطر كبير منها معلقة على شرط إخماد ثورة التايبنج ، فمن هذا القبيل مثلا ذلك الشرط الذى ورد فى اتفاقيتها مع بريطانيا والذى ينص على حق السفن البريطانية فى الملاحة فى نهر اليانجتسى « حالما يستقر السلام » فى الأراضى التى يحتلها التايبنج ، وذلك الشرط الآخر فى اتفاقيتها مع فرنسا الذى يعد بفتح نانكينج للفرنسيين بمجرد استخلاصها من قبضة التايبنج ، كما أن هذه الاتفاقات نصت على مشروعية تجارة الأفيون مما جعل التايبنج الذين لا يعترفون بهذه المشروعية بمثابة منتهكين للقانون الدولى !

وما إن صفى الأجانب حسابهم مع حكومة المانشو على هذا النحو حتى بدءوا يلتفتون إلى التايبنج فسحبوا تأييدهم لهم ، وأخذت أبواقهم وصحافتهم الوطنية تمهد الأذهان للقضاء عليهم بشن حملة من الدعاية والأكاذيب ضد الثورة ، فلم تعد فى نظرها حركة مسيحية تقدمية متنورة وإنما أصبحت حركة فوضوية غيبية متعصبة ، وأخذوا يروجون عنهم قصص الوحشية والتعذيب (نفس ما حدث فى اتهام حركة الاستقلال فى الكونغو بعد مائة عام!) أما دولة المانشو التى دمغت بالأمس بالفسادوالرجعية فقد أصبحت الآن قوة أمن واستقرار وحارسة للتجارة والشرعية !

وفى عام ١٨٦١ أى بعد توقيع اتفاقية بكين بسنة واحدة زار أحد المسئولين البريطانيين ويدعى ألكسندر ميشى نانكينج عاصمة التايبنج وعاد ليقدم تقريراً عن زيارته يختلف كلية عن لهجة التقارير الغربية السابقة فقال : « ليس عندى أدنى أمل فى أية فائدة ترتجى من حركة الثوار .. انها حركة يتبرأ منها كل صينى مهذب ، فليس هناك ما يفعلونه سوى الحرق والقتل والتخريب » .

لقد بدأ التعاون الفعلى بين الأجانب والمانشو ضد التايبنج قبل انتهاء حرب الأفيون الثانية ، ففى عام ١٨٦٠ بينما كان القتال دائراً بين المانشو والقوات البريطانية الفرنسية فى الشمال هاجم أحد جيوش التايبنج بقيادة الجنرال الشهير « لى هسيو شينج » مدينة شنجهاى ، فتعاونت القوات الأجنبية المقيمة فى مشارف المدينة مع قوات المانشو للدفاع عنها ، وبفضل هذا التعاون تمكنت قوات المانشو من صد هجمات التايبنج والصمود فى وجه الحصار الذى فرضته على المدينة حتى اضطر لى هسيو شينج إلى الانسحاب ، ورفضت القوات الأجنبية فى شنجهاى طلب المانشو تعقب قوات التايبنج ، ولكن أحد المرتزقة الأمريكيين ويدعى « فريدريك تاونسند وارد » اقترح على سلطات المانشو أن يتولى إعداد قوة من المرتزقة لمهاجمة معاقل

التايبنج فى سونج كيانج بإقليم كيانجسو لحساب المانشو نظير مكافأة قدرها ٣٠ ألف تايل من الفضة وسارعت حكومة المانشو إلى إجابته إلى طلبه ، فما قيمة ٣٠ ألف تايل من الفضة إلى جانب تلك المبالغ الطائلة التى تنفق على الأجانب — إرضاء لهم أو اتقاء لشرهم — دون خدمة يؤدونها .

وكوّن وارد قوة صغيرة تضم مائة من المرتزقة الأجانب من بينهم بريطانيون وفلبينيون ، وهاجم بها سونج كيانج ، فرد على أعقابه فى أول محاولة ، ثم نجح فى المحاولة الثانية فى احتلال المدينة واتخاذها قاعدة لعملياته فى المستقبل ، وبالرغم من أنه منى بهزائم ساحقة فيما بعد ولا سيما عندما حاول الهجوم على شينجبو ، إلا أن نجاحه فى سونج كيانج كسب له ثقة المانشو ، فبدءوا يجيبونه إلى كل ما يطلب ، وشرع وارد فى تكوين جيش كبير من المرتزقة والمجندين الصينيين الذين يشرف على تدريبهم ضباط بريطانيون وأمريكيون ويزودون بأحدث الأسلحة الغربية .

كان هذا التعاون العسكرى بين المانشو والأجانب يثير شيئاً من الصعوبة لدى الطرفين ، فهما مشتبكان فى حرب رسمية لم يخب أوارها بعد فكيف بهما يتحالفان فى حرب أخرى ؟

ولكن سلطات المانشو حلت هذه الصعوبة بترك الأمر فى يد تجار شنجهاى وطبقتها الأرستقراطية فهم الذين يتصلون بالأجانب ويبحثون معهم كل ما يتعلق بشئون التحالف والقتال المشترك دون أن تظهر سلطة الحكومة إلا وراء ستار ، وكذلك كان الأجانب من جانبهم يبررون الأمر بأنهم إنما يدافعون عن المستقرات الأجنبية فى شنجهاى . وكان الإنجليز يحتجون أحياناً لدى الأمريكيين على نشاط فريدريك وارد متهمينه بإغراء الجنود البريطانيين على الهرب من الخدمة النظامية والانضمام كمرتزقة إلى قواته ، وفى إحدى المرات اعتقل القنصل الأمريكى تاونسند وارد فى إحدى السفن العسكرية الأمريكية بتهمة أن نشاطه يعتبر انتهاكاً لمبدأ الحياد بين المانشو والتايبنج — ولكنه لم يلبث أن سمح له بالفرار وظهر مرة أخرى فى سونج كيانج يدرب الجنود الصينيين بمساعدة « الهاربين » البريطانيين .

وبعد توقيع اتفاقيتى بكين لم يكن هناك ما يدعو إلى استمرار هذا النفاق المتبادل بين الطرفين ، فألقى الأجانب قناع الحياد بعيداً ، وراحوا يقدمون كل المساعدات الممكنة وعلى أوسع نطاق لقوات المانشو والمرتزقة ، فمنح البريطانيون القوات المتحالفة كميات هائلة من الأسلحة الحديثة منها بندقية

« أنفيلد » التى لم تكن قد استخدمت بعد فى أوربا ، وكذلك زوارق بحارية مسلحة حديثة الاختراع ولم تستخدم أيضاً فى بلادها . وهكذا كان الصينيون حقل تجارب لأسلحة الغرب الحديثة .

ونظمت القوات المتحالفة للثورة المضادة صفوفها تحت قيادة متناسقة فى مدن الصين الساحلية ، وتقدمت تحت إشراف مستشارين بريطانيين للقضاء على ثورة التايبنج ، ولكن ثورة التايبنج ردت بقوة وعنف وشجاعة ، وفى أوائل عام ١٨٦٢ هزم قائد التايبنج العظيم لى هسيو شينج قوات المانشو والمرتزقة الأجانب فى معركة كبرى بالقرب من شنجهاى قتل فيها القائد الفرنسى الجنرال بروتيه ، وصدت قوات المرتزقة المسماة « بالجيش الظافر دائماً » تحت قيادة فريدريك تاونسند وارد وقتل وارد نفسه فى إحدى المعارك .

وبعد مقتل فريدريك وارد خلفه فى قيادة قوات المرتزقة الميجور غوردون البريطانى (الذى لقى حتفه بعد ذلك بسنوات طويلة فى حرب استعمارية أخرى ضد شعب السودان) وكان غوردون استعمارياً قحاً يخفى استعماريته تحت ستار من الصليبية الغربية والهوس الدينى ، وكان غوردون قد اشترك

كجندى نظامى من قبل فى حرب الأفيون الثانية وشارك فى حرق قصر « يوان منج يوان » الزاخر بالكنوز البديعة ، ولكنه كان قبل أى شىء جندياً عبقرياً لا شك فى كفاءته ، وأصبحت تحت قيادته قوة كبيرة من المرتزقة مجهزة بأحدث الأسلحة فى حين أن قوات التايبنج كانت لا تزال تحارب بالبنادق التقليدية والرماح .

وتقدمت قوات الثورة المضادة متشجعة بالانقسامات الداخلية فى صفوف التايبنج فاحتلت نينجبو وشاوشينج وهانجشاو وغيرها من مدن إقليم شيكيانج ، وفى مايو ١٨٦٢ وصلت إلى ضواحى تيان شينج عاصمة التايبنج ، وأبدى المدافعون عن عاصمة الثورة بطولة أسطورية طوال أربعين يوماً من القتال المرير ولكنهم عجزوا فى النهاية عن رد المهاجمين الذين تقدموا لمحاصرة المدينة .

وفى يونيو ١٨٦٤ انتحر هونج هسيو شوان زعيم ثورة التايبنج يائساً من النصر ، وكان الغزاة يدقون أسوار المدينة ، ولكن المدافعين عنها لم يستسلموا بل استمروا رغم يأسهم ، ونقص عددهم ومواردهم ، فى الدفاع عن ثورتهم ، وحاول بعضهم الانتحار بالاندفاع بدون روية فى صفوف العدو ليصنعوا

لأنفسهم ميتة مجيدة، وبنى آخرون محارق وأشعلوا أنفسهم أحياء، وعندما سقطت تيان شينج فى أيدى قوات الثورة المضادة لم يكن فيها من جيش الثورة أكثر من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جندى بعد أن كان هذا الجيش يضم مئات الألوف من قبل .

وأسر القائد الرجعى الكبير تسينج كوفان غريمه القديم لى هسيو شينج وأعدمه علناً .

وبذلك طوى التاريخ صفحة من أمجد صفحات كفاح الشعب الصينى .

٨ — أسماك القرش

بعد هزيمة التايبنج وإخماد القلاقل التى أثارتها الأقليات الأخرى أصبحت الصين مفتوحة كالفراغ أمام الدول الأجنبية تتناوشها كأسماك القرش من كل جانب .

وكل تاريخ الصين بعد حرب الأفيون الثانية إلى نهاية القرن التاسع عشر عبارة عن محاولات الدول الأجنبية اقتطاع أوصال الصين ، ونهب مواردها ، واقتسام مناطق النفوذ فيها .

وقد واصلت الدول الأجنبية سياستها التقليدية المعروفة وهى الاتحاد فى وجه الصين رغم ما بينها من عداء ومتناقضات

يساعدها على ذلك جسامة الغنيمة التى تتكالب عليها ، فلم يكن هناك ما يدعوها إلى العراك فيما بينها على موارد لا تنضب وإنما هى تكفل الإشباع للجميع .

وكانت الدول الأجنبية قد بلغت فى ذلك الوقت مرحلة متقدمة من نموها الرأسمالى وتطورها الاستعمارى ، وبدأت فى تصدير رأس المال المستغل إلى الصين ، فأنشأت فيها البنوك والمصارف وأصدرت أوراق البنكنوت ، وتصرفت فى الودائع والمدخرات الصينية ، وأصبحت هذه البنوك منذ يومها الأول من الأدوات الحاسمة للعدوان الرأسمالى فى الصين .

لقد أخذت الدول الاستعمارية تقوم باستثمارات ضخمة فى الصين فأقامت المصانع المختلفة ، واستولت على المواد الخام الصينية بأرخص الأثمان ، ومدت خطوط السكك الحديدية بين مدن الصين وعبر أراضيها الشاسعة ، وحصلت على امتيازات التعدين لاستغلال ما تزخر به أراضى الصين من الفحم والحديد ومختلف المعادن مما أدى إلى ربط الاقتصاد الصينى تماماً بعجلة الاستعمار الرأسمالى وزاد من بؤس الشعب الصينى وشقائه .

ولن نحاول إعطاء صورة تفصيلية لعملية انتهاب الصين

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولكن يكفى إلقاء نظرة سريعة على أطماع كل دولة وتصرفاتها ، تلك التصرفات التى تركت آثار أسنان القرش فى جسد الصين الطرى .

ولنبدأ ببريطانيا عميدة الدول الاستعمارية ورأس رمحها المصوب إلى قلب الصين ، فنجد أن بريطانيا تسارع إلى احتلال بورما فى أوائل الستينات لتتخذها لوحة قفز إلى جنوب الصين ، وقاعدة لعملياتها العسكرية فيها ، وحاولت بريطانيا فى أول الأمر استغلال الثورة التى قام بها المسلمون فى يونان لصالحها ، فأيدت بالاشتراك مع الإمبراطورية العثمانية الثورة التى قام بها يعقوب الكبير فى جنوب سينكيانج بين عامى ١٨٦٨ و ١٨٧٨ وكان الهدف من ذلك اقتطاع منطقة « كاشجار » من الصين لتكون حاجز اصطدام للهند ، وفى عام ١٨٧٦ زعمت بريطانيا أن مترجماً إنجليزياً قتل فى يونان ، وتقدمت بطلبات عسيرة إلى الصين مما اضطر الصين إلى توقيع اتفاقية كيفو مع الإنجليز ، وأثبتت الاتفاقية اعتذار الصين عن الحادث ودفع غرامة تعويضية كبيرة، ومنحت بريطانيا حقوق المعاهدات السابقة فى الأقاليم الجنوبية الغربية للصين . كما أرغمت بريطانيا الصين على التخلى عن حقوقها فى

نيبال وحولتها إلى محمية بريطانية ، وفى أواخر القرن وضعت يدها على ويهاهوى وأقسمت أن تظل فيها طالما أن روسيا القيصرية تحتل ميناء بورت آرثر .

وأرسلت روسيا القيصرية قواتها إلى القطاع الشمالى من إقليم سيكيانج لتواجه توسع بريطانيا فى الجنوب ثم انسحبت عام ١٨٨١ ولكنها لم تلبث فى عام ١٨٩٨ أن أرغمت الصين على تأجير قاعدة بورت آرثر وميناء وارين التجارى لمدة ٢٥ عاماً .

أما فرنسا فقد احتلت فيتنام على الحدود الجنوبية الشرقية للصين فى عام ١٨٥٨ لتتخذها قاعدة للتسلل والعدوان فى إقليمى يونان وكوانجسى وهاجمت هانوى فى عام ١٨٧٣ بهدف الاستيلاء على النهر الأحمر كطريق للتغلغل فى قلب الصين ، وحدث أن كانت قوة مسلحة من الفلاحين الصينيين تقف على الحدود الصينية الفيتنامية فسارعت إلى نجدة الفيتناميين مما أدى إلى هزيمة الفرنسيين فى عدة مواقع ، فتعللت فرنسا بذلك لإعلان الحرب على الصين بحجة أنها اعتدت على فيتنام (!) وبذلك قامت الحرب الصينية الفرنسية الشهيرة التى منيت فيها فرنسا بهزائم فادحة ، فقد فشل الهجوم الذى شنته القوات الفرنسية على كيلونج بشمال تايوان وألقى بها فى البحر ، كما

فشلت محاولة فرنسية أخرى للهبوط فى ثان شوى وقتل فيها مائتا جندى فرنسى . ولقى الفرنسيون هزائم أخرى ماحقة فى تايوان ، ولكنهم لم يقنعوا بكل هذه الهزائم فشنوا فى عام ١٨٨٥ هجوماً آخر من فيتنام على شيناتكوان وهى بلدة على حدود الصين الجنوبية صد كذلك بخسائر فرنسية جسيمة بلغت أكثر من ألف قتيل وجريح وهرب باقى الجنود الفرنسيين . وعلى الرغم من كل هذه الهزائم التى منى بها الفرنسيون فقد أرغموا حكومة المانشو فى يونيو ١٨٨٥ على توقيع معاهدة صلح مهينة فتحت لفرنسا أبواب جنوب غربى الصين ، وأرغمت الصين على التنازل عن حقوق الدول الكبرى فى فيتنام . وفى عام ١٨٩٨ استولت فرنسا بالقوة على خليج كوانجشو شوان فى جنوب الصين .

وعلى العكس من الحرب الصينية الفرنسية التى سجلت فيها الصين انتصارات باهرة دارت الدوائر على الصين فى حربها مع اليابان فى عامى ١٨٩٤ و ١٨٩٥ وكانت اليابان قد بدأت تضغط على الصين للتخلى عن حقوقها التاريخية فى كوريا . وفى عام ١٨٩٤ أسعفتها الظروف بقيام ثورة شعبية كبرى فى كوريا هى ثورة تونجان التى قام بها الفلاحون الكوريون ضد فساد الحكم ومظالم الإقطاع ، واقتحم الفلاحون الثائرون

مخازن الغلال ووزعوها على الشعب الجائع الذى التف حول الثورة وأيدها بحماسة بالغة ، وخلال شهور قليلة انتشرت الثورة من الجنوب إلى الشمال وإلى كل أنحاء البلاد ، وكاد الأمر أن يخرج كلية من يد حكومة كوريا فناشدت حكومة المانشو فى الصين مساعدتها فى إخماد الثورة ، وأرسلت الصين قواتها بالفعل فاجتازت الحدود الشمالية لكوريا ووصلت إلى بيونج يانج . وهنا استغلت اليابان الفرصة وأرسلت قوات مماثلة إلى كوريا .

وبعد أن أخمدت ثورة الفلاحين الكوريين اقترحت حكومة الصين انسحاب القوات الصينية واليابانية معاً من كوريا ، ولكن اليابان رفضت الانسحاب وقررت البقاء بحجة مساعدة الكوريين فى إنجاز الإصلاحات الداخلية ولم تكتف اليابان بذلك بل قامت باحتلال العاصمة سيول مما أدى إلى تفاقم حدة الأزمة ، وتواجه الجيشان الصينى واليابانى على خط عرض ٣٨ .

وفى يوليو ١٨٩٤ هاجمت القوات اليابانية بدون إعلان حرب الأسطول الصينى فى المياه الكورية ، فقامت الحرب بين الصين واليابان ، وخلال شهرين اضطرت القوات الصينية إلى الارتداد عن كوريا فتعقبتها القوات اليابانية إلى داخل الصين

واحتلت ويهاى و بورت آرثر ، وأبدى الصينيون بطولات رائعة فى الدفاع عن وطنهم ولكنهم فشلوا فى صد اليابانيين الذين يأخذون بأساليب الحرب الحديثة ، وراحت حكومة المانشو تناشد بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة العمل على إنهاء التدخل اليابانى . ولكن الدول الأجنبية تجاهلت هذه النداءات زيادة فى إذلال الصين وإضعافها،وأخيراً خشيت الولايات المتحدة أن يؤدى استمرار الحرب بين الصين واليابان إلى تدخل الدول الأخرى بما يسىء إلى المصالح الأمريكية فسعت لدى اليابان حتى أقنعتها بوقف القتال ، وكان اليابانيون قد وصلوا بالفعل إلى حد الإنهاك وأوشكوا على الانسحاب من تلقاء أنفسهم ، ولكن تدخل الولايات المتحدة رفع من أسهمهم فى التفاوض ، وفى مارس ١٨٩٥ وقعت الصين معاهدة شيمونوسيكى مع اليابان واستجابت فيها إلى جميع المطالب اليابانية فقد تنازلت بمقتضاها عن تايوان وجزر بسكادور وشبه جزيرة لياو تونج لليابان . وفتحت شاسى وشونج كينج وشوشو وهانج شو كموانئ معاهدة لليابان ، واعترفت بحق اليابان فى إقامة المصانع على الأراضى الصينية ، وتنازلت عن كل حقوقها فى كوريا ، ومنحت اليابان غرامة حرب كبيرة مقدارها ٢٠٠ مليون تايل من الفضة .

وبمقتضى شرط الدولة الأكثر رعاية حصلت الدول الأجنبية الأخرى على نفس الحق فى إقامة المصانع فى الصين ، ولكنها رغم ذلك حقدت على اليابان استئثارها بكل هذه الامتيازات التى منحتها لها اتفاقية شيمونوسيكى فتقدمت روسيا القيصرية وفرنسا وألمانيا بإنذار إلى اليابان فى أبريل ١٨٩٥ طلبت فيه إعادة جزر بنجو وشبه جزيرة لياوتونج إلى الصين فقد خشيت الدول الثلاث أن يؤدى احتلال اليابان لهذه المناطق الاستراتيجية الهامة إلى قطع الطريق على توسعها فى الشرق الأقصى ، ولم تستطع اليابان أمام إصرار الدول الثلاث وعزمها على استخدام القوة إلا أن تخضع للإنذار وتقوم بسحب قواتها من تلك المناطق نظير تعويض إضافى من الصين قدره ٣٠ مليون تايل من الفضة

أما ألمانيا فقد استغلت مقتل اثنين من المبشرين الألمان واستولت على ميناء تسينجتاو بخليج كياوشو — وهو أكبر موانئ شمال الصين — فى عام ١٨٩٧ ، وفى مارس من العام التالى وقعت اتفاقية غير متكافئة مع حكومة المانشو أطلقت يدها فى تأجير شبه جزيرة شانتونج الشرقية لمدة ٩٩ عاماً أى حتى عام ١٩٩٧ !

وأخيراً نأتى للولايات المتحدة الأمريكية . . وكان لها أيضاً نفس القصة الاستعمارية مع الصين ، ففى عام ١٨٦٧ انتهزت

الولايات المتحدة فرصة غرق إحدى سفنها بالقرب من تايوان فهاجمت قواتها الأجزاء الجنوبية من الجزيرة وشنت غارات وحشية على الأهالى بحجة تأديبهم لقتل بحارة السفينة الغارقة ولكن أهالى تايوان حاربوا بشجاعة فائقة وهزموا الغزاة الأمريكيين.

وبين عامى ١٨٦٧ و ١٨٧١ قام الأمريكيون بغزوات مسلحة ضد كوريا جارة الصين فى الشمال الشرقى ، وفى إحدى هذه الغزوات الفاشلة قتل ٣٥٠ كورياً بقصف مدافع الأسطول الأمريكى .

وشجعت الحكومة الأمريكية اليابان على احتلال جزر ليوشيو الصينية (أوكيناوا) مقابل السماح للسفن الأمريكية بإقامة قاعدة فيها .

وكانت الدبلوماسية الأمريكية تعمل دائماً على إساءة العلاقات بين اليابان والصين بتشجيع اليابان على احتلال تايوان حتى إن السفن الأمريكية هى التى نقلت قوات الغزو اليابانية إلى تايوان فى عام ١٨٧٤ ، وقد انسحب اليابانيون بعد ذلك ليعودوا إلى احتلال الجزيرة احتلالا كاملا عام ١٨٩٤ .

والواقع أن الولايات المتحدة كانت قد خرجت فى أواخر القرن التاسع عشر من حربها مع أسبانيا للسيطرة على كوبا

والفلبين ضعيفة عسكريـًّا ومنهكة اقتصاديًّا ولكنها لم تكن أقل شراهة للاستعمار من الدول الاستعمارية العريقة الأخرى بل قد تكون أكثر منها تحرقاً للحصول على نصيب من المستعمرات فى وقت بدت فيه الدول الرأسمالية تقتسم العالم كغنيمة باردة ، ولكنها كانت أعجز من أن تحقق أحلامها فى تحويل المحيط الهادى إلى بحيرة أمريكية .

لم تكن الولايات المتحدة قادرة على منافسة الدول الاستعمارية القوية الأخرى فى ميدان استعمار الصين ، ولذلك لجأت إلى سياسة ملتوية لتحقيق أغراضها هى التى عرفت بسياسة « الباب المفتوح » ، وقد أعلنها وزير خارجيتها جون هاى فى عام ١٨٩٩ ، ومضمون هذه السياسة أن تعترف كل دولة أجنبية بمناطق نفوذ الدول الأخرى فى الصين ولا تنازعها فى حقوقها وامتيازاتها ، وذلك مقابل أن تفتح كل دولة مناطق نفوذها أمام التجارة الحرة للدول الأخرى ، وبذلك يستطيع الاقتصاد الأمريكى الفتى الناشئ أن ينفذ إلى كل أجزاء الصين بلا مشقة ولا عقبات ودون أن يحتاج إلى تغطية مباشرة ومستمرة من قوة الدولة العسكرية والدبلوماسية .

ولذلك كان من الطبيعى أن تقف الدول القوية عسكريـًّا

والضعيفة اقتصاديًّا مثل روسيا القيصرية موقفاً بارداً من هذه السياسة ، ولكن سياسة الباب المفتوح وضعت بالفعل موضع التنفيذ بفضل تأييد بريطانيا التى كانت أقوى الدول ماليًّا وتجاريًّا، وكانت تريد مد نفوذها الاقتصادى إلى مناطق النفوذ الأخرى الروسية والفرنسية والألمانية واليابانية .

ويحاول بعض الكتاب الأمريكيين الدفاع نفاقاً عن سياسة الباب المفتوح زاعمين أن الغرض منها المحافظة على سيادة الصين واستقلالها، ولكن الحقيقة أنها كانت على العكس من ذلك تماماً لا تهدف إلى شيء إلا تجنيب الدول الاستعمارية الصراع فيما بينها على استغلال الصين . وهى كما أسماها أحد الكتاب الأمريكيين « سياسة أنا أيضاً » ، وعلى أية حال فإن أحداً لم يسأل الصين عما إذا كانت تريد أن تترك بابها مغلقاً أم مفتوحاً !

وقد أدت السياسة الاستعمارية فى الصين وعملية الابتزاز المنظمة المستمرة لمواردها إلى إفلاس الخزانة الصينية واضطرارها إلى الاستدانة من مستغليها،فقبل عام ١٨٩٥ كانت ديون الصين للدول الأجنبية لا تكاد تذكر ، ولكن فى السنوات الخمس التالية استدانت الصين مبالغ مجموعها ٣٧٠ مليون

تايل من الفضة أى ما يساوى ٥٠ مليون جنيه إسترليني (بعملة ذلك الوقت) لدفع غراماتها لليابان وسداد التزاماتها الأخرى ، وحصلت الصين على هذا القرض بفوائد عالية من مجموعتين ماليتين إحداهما روسية فرنسية والأخرى إنجليزية ألمانية ، وتنازلت الصين كضمانة لسداد القرض عن حق تحصيل رسوم الجمارك وبعض رسوم النقل الداخلى وضريبة الملح للأجانب ، وبذلك وقع الاقتصاد الصينى تماماً فى قبضة المستعمرين ، وظلت الصين تسدد ديونها لروسيا وفرنسا حتى عام ١٩٣١ وديونها لإنجلترا وألمانيا حتى عام ١٩٤٣ .

ولتعويض عجز الخزانة الصينية وإنقاذها من الإفلاس اشتط حكام المانشو فى زيادة الضرائب المحلية مما جعل كل الحمل يقع على كاهل الشعب البائس الفقير .

هبة الملاكمين

أواخر القرن التاسع عشر أصبحت الصين تموج بالتيارات الفكرية والسياسية المختلفة بحثاً عن حل للأزمة الوطنية . .

كانت هناك الدوائر الحاكمة والطبقة الأرستقراطية التى رأت

أن المخرج يكمن في ضمان صداقة الأجانب ، والقيام بحركة تغريب واسعة في الإدارة والثقافة والتعليم ، وإدخال الصناعات الحديثة ولا سيما صناعة الأسلحة والترسانات البحرية والسكك الحديدية لإرهاب الشعب وإشعاره بقوتها دون المساس بالأوضاع التقليدية المحافظة في المجتمع الصيني .

وكان هناك دعاة الإصلاح الاجتماعي من البرجوازيين المعتدلين الذين يرون أنه لا يكفي الأخذ بمظاهر الحضارة الغربية وإنما يجب النفاذ إلى لبها وجوهرها بما في ذلك إصلاح النظام الإقطاعي السياسي والأخذ بالملكية الدستورية المقيدة .

وكان هناك فريق آخر من البرجوازيين الثوريين الذين يمثلهم صن يات صن ، ويلتف حوله المبعوثون الصينيون في الخارج ، وهؤلاء يرون أن لا مخرج إلا بالقضاء على النظام الملكي الفاسد من جذوره وإنشاء جمهورية حديثة فتية .

وأخيراً كان هناك تيار شعبي عارم تمثله الجمعيات السرية التلقائية المتعددة المنتشرة في جميع أنحاء الصين ، وهو تيار ليس له زعماء معينون ، وليست لديه خطة واضحة للإصلاح ولكنه يتميز بطاقة ثورية هائلة موجهة في المحل الأول ضد الأجانب وما يمثلونه من خطر مادي ومعنوي .

وقد جرب كل من هذه التيارات حظه ، وساهم بما يستطيع فى تطوير الحركة الوطنية فى الصين ، فأما الرأسماليون المحافظون فقد بدءوا فى الظهور كطبقة جديدة ناشئة نتيجة لإقدام التجار وبعض الإقطاعيين وكبار الموظفين على استثمار أموالهم فى الصناعة ، وقد وجدت الرأسمالية المحلية فى بداية نشأتها مقاومة وكراهية من الرأسمالية الاستعمارية والإقطاع الداخلى مما جعلها تأخذ فى أول الأمر طابعاً وطنياً ولكن ذلك كان إلى حين ، فسرعان ما انحازت نهائياً إلى صفوف الاستعمار وأعداء الشعب.

أما البرجوازيون الإصلاحيون فكانت لهم حركة قوية فى نهاية القرن انتهت بمأساة ، وسبب هذه المأساة أنهم وثقوا فى الرجعية أكثر مما يجب بل خيل إليهم أنهم مستطيعون تحقيق أهدافهم فى الإصلاح عن طريق نفس الأجهزة الرجعية التى تعوق بطبيعتها التقدم الاجتماعى ، كان مثلهم الأعلى اليابان التى أخذت بالروح الغربية مع الإبقاء على كل تقاليدها القومية بما فيها النظام الملكى الإمبراطورى ، وكان يمثل هذه الحركة رجال من أمثال « كانج يو — وى» و « يانج شى شاو» و « ثان تسى تونج » الذين اشتهروا باطلاعهم الواسع على النظرية السياسية الغربية مع التضلع فى التراث الثقافى الصينى

وسيطروا فعلا بأفكارهم على المجرى العام للتفكير فى الصين فى أواخر القرن التاسع عشر فأنشأوا الصحف والجمعيات الثقافية والعلمية وروجوا شعارات الإصلاح وقدموا العرائض إلى القصر والمسئولين شارحين وجهة نظرهم ومحذرين من الهاوية التى تتردى فيها البلاد .

ونجح دعاة الإصلاح هؤلاء فى الوصول إلى قلب الإمبراطور الشاب « كوانج هسو » الذى كان يواجه مؤامرات رجعية عنيفة فى القصر الإمبراطورى تدبرها عمته الداهية « دو — واجر تزو هسى » ففتح الإمبراطور صدره لدعاة الإصلاح وعين « كانج يو — وى » وبعض زملائه أعضاء فى المجلس الاستشارى الكبير الذى يرأسه الإمبراطور شخصياً لمساعدته فى إصدار المراسيم ودراسة المذكرات والعرائض التى ترفع إليه .

وبين شهرى يونيو وسبتمبر عام ١٨٩٨ أصدر الإمبراطور « كوانج هسو » عدداً من مراسيم الإصلاح بوحى من بطانته التقدمية شملت إلغاء نظام الكتابة التقليدية المعقدة ، وتخفيض عدد موظفى الحكومة والحرس الإمبراطورى ، وإنشاء بنك وطنى ومؤسسة عامة للتعدين والسكك الحديدية ، وديوان للزراعة والصناعة والتجارة ، ووضع مشروع لميزانية الدولة ، وإنشاء

مدارس حديثة ، والتوسع فى الصناعات المختلفة ، ونشر الكتب والمخترعات ، وإنشاء مكتب للترجمة عن اللغات الغربية ، والأخذ بنظام التدريب الحديث فى الجيش ، وإقرار حق جميع المواطنين فى توجيه النداءات المباشرة إلى العرش .

وأخطأ دعاة الإصلاح فى اعتقادهم أن الأمر لا يتطلب أكثر من إصدار هذه المراسيم حتى يصبح كل شىء على ما يرام ، ففى الواقع لم يوضع أى مرسوم منها موضع التنفيذ ، بل أثار هذا الاتجاه رد فعل قويًّا من الدوائر الإقطاعية ، وكانت السلطة الحقيقية فى البلاط فى يد الإمبراطورة الشمطاء الرهيبة « دو — واجر تزو هسى » التى كانت الزوجة المفضلة للإمبراطور السابق « هسيين فنج » وعمة الإمبراطور الحالى « كوانج هسو » وأصبحت وصية على العرش منذ تولى كوانج الحكم وهو فى الرابعة من عمره إلى أن بلغ سن الرشد ، وأثناء فترة حكمها الطويل استطاعت أن تجعل الكثيرين من الوزراء والقادة العسكريين رجالا مخلصين لها تحركهم كالخاتم فى أصبعها ، وظلت تتمتع بالسلطة الحقيقية من وراء العرش ، وبالطبع كانت تلك المجموعة الرجعية الفاسدة تخشى الاتجاهات الخطيرة التى بدأ يتورط فيها الإمبراطور الشاب

المارق ، فكرست كل قواها لتخريب حركة الإصلاح ، وفى ١١ يونيو من نفس العام قامت الإمبراطورة وأعوانها بحركة مضادة مفاجئة فاعتقلوا الإمبراطور كوانج فى قصره وألقوا القبض على جماعة من أنصاره فاعدموا بعضهم بقطعهم نصفين بالسيف ، وزجوا بآخرين فى غياهب السجون ، وفر باقى دعاة الإصلاح إلى أعماق الريف أو خارج البلاد ، وبذلك بترت حركة الإصلاح التى استمرت ١٠٣ أيام ، وعرفت بإصلاحات المائة يوم .

والواقع أن السبب الحقيقى لفشل حركة الإصلاح ليست الإمبراطورة دو واجر فى حد ذاتها ، وإنما لأن هذه الحركة كانت تسعى لتحويل الصين إلى دولة رأسمالية دون القضاء على النظام الإقطاعى فيها وبمعزل عن الاحتياجات الحقيقية للشعب الثائر المتعطش للعدالة الاجتماعية ، كما كان دعاة الإصلاح هؤلاء يظنون أن فى إمكانهم تحقيق أهدافهم عن طريق الإمبراطور الذى مهما بلغ من حسن النية يعتبر قمة الهرم الاجتماعى السياسى الفاسد . وعلى أية حال فقد أثبت فشل هذه الحركة أن الطريق مغلق تماماً فى وجه الإصلاح البرجوازى فى الصين .

كان دعاة الإصلاح فى معزل تام عن تيار الشعب الهادر ، ففى تلك الفترة قام الفلاحون تلقائيًّا بالثورة ضد العدوان الأجنبى فى حركة عرفت بهبة الملاكمين أو البوكسرز التى نجحت فى سنوات قليلة فى اكتساح الصين كألسنة اللهب لتعيد إلى الأذهان ذكرى ثورة التايبنج العظيمة .

وقد نشأت هذه الحركة أصلا فى إقليم شانتونج عن إحدى الجمعيات السرية الكثيرة المنتشرة فى صفوف الشعب وهى جمعية « إى هو توان » ومعناها « جمعية الفضيلة والنظام » وكانت على خلاف التايبنج توجه عداءها أساساً إلى الأجانب ولا سيما البعثات التبشيرية المسيحية ، وكان هناك ما يبرر هذا العداء ، فقد كانت هذه الإرساليات التبشيرية على احتكاك مباشر بالشعب على العكس من البعثات الدبلوماسية والعسكرية الأجنبية التى كانت تتركز فى عدد قليل من المدن الكبيرة ، ولم تكن البعثات التبشيرية تراعى مشاعر الشعب الصينى بل كانت تمتهن عاداته وتقاليده وحقوقه ، فاستولت على أراضى الفلاحين وممتلكاتهم بطرق ملتوية ، وتدخلت فى القضاء الصينى ، وأنشأت محاكمها الخاصة ، وحمت المجرمين الفارين من العدالة الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية ، وكانت مسئولة عن كثير

من ألوان القتل والاضطهاد

لذلك كان من الطبيعى أن يوجه الشعب عداءه نحو هذا الخطر المباشر وكانت جمعية « أى هو توان » أكبر قوة شعبية تصدت لهذا الخطر بالعمل الإيجابى فكانت تدرب أعضاءها على فن الملاكمة الصينية . واستخدام الأسلحة القديمة وعندما بدأت قوة الملاكمين تزداد فى منطقة شانتونج دمغتها حكومة شينج بالإلحاد والإرهاب وأمرت سلطات الإقليم بحظر نشاطها ، ولكن يو هسين حاكم شانتونج أحس فى نفسه العجز عن ذلك ورأى أن من حسن السياسة محاولة استغلال هذه القوة الفلاحية المسلحة لخدمة طبقة الأسياد لا سيما أنها ترفع شعار تأييد الأسرة المالكة وإبادة الأجانب .

وواصلت الدول الأجنبية الضغط لدى حكومة المانشو لإرغامها على سحق الحركة ، واضطرت الحكومة بالفعل إلى عزل يو هسين وعينت بدلا منه يوان شيه كاى وهو عميل استعمارى صريح ، وبدأ يوان حكمه فى شانتونج بحملة من الرعب والإرهاب ضد الملاكمين ، وأغرق الشعب فى حمامات الدم فأينما امتدت سلطاته كانت دماء الفلاحين الوطنيين تسيل أنهاراً ، ولكن ذلك كله لم يفد فى شىء بل ازدادت حركة

الملاكمين قوة واشتعالا وأخذت تنتشر فيما حولها من المناطق ، وفى أوائل عام ١٩٠٠ وصلت إلى إقليم هوبيه ، وما إن انتصف العام حتى سيطرت على مدينتى ياو تنج وتيان تسين وقطعت خطوط السكك الحديدية المؤدية إلى بكين ، وأصبحت تهدد العاصمة .

وهنا لجأت الإمبراطورة « دو اجر تزو هسى » صاحبة السلطة الفعلية فى الصين إلى إحدى مناوراتها السياسية البارعة لتجنب الاصطدام بقوة الملاكمين واستغلالها لحسابها . وكانت الإمبراطورة بعد أن سمعت حركة المائة يوم قد أرادت التخلص من الإمبراطور كوانج هسو نهائياً ، ولكنها وجدت معارضة قوية من جانب الدول الأجنبية ، فوقع النزاع بين الإمبراطورة وحاشيتها وبين الأجانب ، وفكرت الإمبراطورة فى استخدام الملاكمين للضغط على الأجانب فاستدعت زعماءهم إلى القصر الإمبراطورى فى يونيو ١٩٠٠ ووعدتهم بتأييد أهدافهم ، وسمحت بدخول قواتهم إلى بكين سلمياً ، بل أرسلت قواتها للاشتراك مع قوات الملاكمين فى مهاجمة المفوضيات الأجنبية فى بكين وضواحيها مدة خمسة أيام تكبد فيها الأجانب خسائر كبيرة فى الأرواح والممتلكات ، وعند ذلك قررت الدول

الأجنبية التدخل لسحق حركة الملاكمين وإذلال حكومة المانشو من جديد بحرب أخرى من طراز حروب الأفيون .

وأرسلت الدول الأجنبية الثمانى بريطانيا والولايات المتحدة واليابان وفرنسا وألمانيا وروسيا القيصرية والنمسا — المجر وإيطاليا قوات رمزية فى أول الأمر إلى الصين تكونت منها قوة مشتركة تضم ألفى جندى مزودين بأحدث الأسلحة تحت قيادة الأميرال البريطانى سيمور (الذى سبق أن ضرب الإسكندرية عام ١٨٨٢) وتقدمت القوات الأجنبية المشتركة فى ١٠ يونيو ١٩٠٠ من تيان تسين تجاه بكين ، ولكن الملاكمين المسلحين بالرماح والسيوف فحسب استطاعوا التصدى لها وإرغامها على الانسحاب تاركة وراءها ضحايا كثيرين حتى إن الأميرال سيمور اضطر إلى الاعتراف بأنه لولا الأسلحة الغربية الحديثة لكان طابور الغزو الأجنبي قد أبيد عن بكرة أبيه .

ولم تسكت الدول الأجنبية على ذلك وأخذت ترسل المزيد من قواتها إلى الصين حتى بلغت القوات التابعة للدول الثمانى أربعين ألف جندى يستعدون لخوض معركة فاصلة ، وتحت ضغط الرأى العام الشعبى اضطرت حكومة المانشو إلى إعلان الحرب على الأجانب ، وفى ١٤ يوليو ١٩٠٠ وهو عيد سقوط

الباستيل فى الغرب استولت القوات الأجنبية على تيان تسين وأعملت فيها المذابح والتخريب فأرسلت الإمبراطورة دو واجر تزو هسى مبعوثاً سرياً إلى المفوضيات الأجنبية تعرض الصلح من جانبها فقط وسحبت قواتها من المعركة . وكانت هذه طعنة نجلاء فى ظهر الملاكمين.

ومع اقتراب قوات الغزو من بكين فرت الإمبراطورة دو واجر تزوهسى والإمبراطور كوانج هسو مع مجموعة من النبلاء وكبار رجال القصر إلى سيان بشمال غربى الصين تاركين الشعب وحده يدافع عن العاصمة التى حكموها ، ولم يكتفوا بذلك بل أصدروا قبل فرارهم بياناً ناشدوا فيه الغزاة بلا خجل « المساهمة فى إبادة لصوص البوكسرز » ، ولكن قوات الشعب رغم ماتعرضت له من خديعة وخيانة واصلت القتال بشجاعة لحماية سيادة الدولة واستقلالها ، وكان الملاكمون يحاربون الغزاة يداً بيد فى شوارع المدن ، واستطاعوا أن يقتلوا منهم عدداً كبيراً على رأسهم الجنرال الألمانى يورك الذى قتل فى إحدى المعارك .

وشجع كفاح الملاكمين جماهير الشعب فى مختلف أنحاء الصين على الثورة كما حدث فى زمن التايبنج ، ولكن المسئولين الحكوميين فى الأقاليم المختلفة كبتوا ثورات الشعب وسحقوا هذا الاتجاه فى مهده حتى أثناء اشتراك الحكومة المركزية فى الحرب

ضد الأجانب خوفاً من الطبيعة الطبقية لثورة الملاكمين فقد أزعجت هذه الثورة كل الطبقات المستغلة بما فيها العناصر الثورية من الطبقة الوسطى التى استنكرت هبة الملاكمين باعتبارها « حركة لصوص » . أما البرجوازيون المعتدلون ذوو الميول الإصلاحية فقد ذهبوا إلى حد المشاركة فى العمل مع قوات المعتدين الأجانب لسحق الحركة مما يدل على أن الطبقة المتوسطة الصينية بمختلف قطاعاتها كانت تخشى الصراع الطبقى أكثر مما تخشى الاستعمار الأجنبي .

وفى ١٤ أغسطس دخلت قوات الأجانب بكين وأنزلت بها أبشع ألوان الانتقام فحولتها إلى جحيم من القتل والنهب والحرق والاغتصاب ، وتكررت المأساة فى شانها يكوان وباوتنج وشانج شيانكو حيث كان ألوف المواطنين يعدمون كل يوم فى الشوارع والميادين بشبهة الانتماء إلى جمعية الملاكمين ، ويعترف الكتاب الغربيون أنفسهم بأن الفظائع التى ارتكبت فى إخماد ثورة الملاكمين لا يكاد يكون لها نظير فى تاريخ العالم ، واعترف بذلك فى مذكراته الفيلد مارشال فون فالدز القائد الألمانى لقوات الغزو المتحالفة .

وبعد احتلال بكين أوفدت حكومة المانشو الخائن

لى هونج شانج الذى ساهم فى إخماد هبة الملاكمين لمفاوضة الأجانب ، وفى عام ١٩٠١ أبرمت بين الطرفين عدة بروتوكولات تعهدت الصين بمقتضاها بدفع غرامة مقدارها ٤٥٠ مليون تايل من الفضة وصلت مع فوائدها عند سداد آخر قسط منها بعد ٣٩ عاماً إلى ٩٠٠ مليون تايل . كما سمحت هذه البروتوكولات للدول الاستعمارية باحتلال عدة مناطق بين بكين وتيان تسين وشانها يكوان بحجة الدفاع عن أرواح الرعايا الأجانب ووضع وحدات مسلحة لحراسة المفوضيات الأجنبية فى بكين ، وتجريد حصون تاكو التى تحمى بكين من ناحية البحر من السلاح ، أى وضع بكين تحت الاحتلال الأجنبى الفعلى .

* * *

لقد لقيت هبة الملاكمين هجوماً عنيفاً من كتاب كثيرين فى الصين والغرب وهو هجوم يعتمد أساساً على الاتهام المبكر الذى وجهه إليها الأجانب فى أول ظهورها لإخفاء طبيعتها التقدمية وتصويرها بأنها ليست أكثر من اندلاع آخر لمشاعر قومية متأخرة وتعبير عن عداء أعمى لجميع الأجانب وللحضارة الأوربية — وقد فند لينين هذه الفرية فى مقال نشره فى صحيفته السرية « أسكرا » فى ديسمبر ١٩٠٠ بعنوان « الحرب

الصينية » جاء فيه : « حقاً ! إن الصينيين يكرهون الأوربيين ، ولكن أى نوع من الأوربيين يوجهون إليهم كراهيتهم ولماذا ؟ إن الصينيين لا يكرهون الشعب الأوربى فى مجموعه وليس هناك أى نزاع بينهما ، إنما هم يكرهون الرأسماليين الأوربيين والحكومات التى تساندهم ، وكيف يمكن للصينيين أن يتجنبوا كراهية هؤلاء الذين جاءوا إلى بلادهم خصيصاً من أجل الكسب غير المشروع والذين يستغلون حضارتهم المتقدمة فى أغراض الخداع والغش والعنف ، والذين يشنون الحروب ضد الصين ليحصلوا على الحق فى تجارة الأفيون التى يخدرون بها الشعب الصينى ، والذين يخفون نفاقاً سياستهم العدوانية تحت ستار نشر المسيحية ؟ »

وقال شواين لاى رئيس وزراء الصين الشعبية عن هبة الملاكمين : « إن حركة إي‌هو ثوان التى قامت عام ١٩٠٠ كانت تعبر عن مقاومة الشعب التى لا تفل ضد الإمبريالية ، وهذا الكفاح البطولى كان واحداً من أعمدة الأساس التى قام عليها النصر العظيم للشعب الصينى بعد ذلك بخمسين عاماً » .

والواقع أن حركة الملاكمين كانت هبة تلقائية لجماهير الفلاحين الصينيين ضد الإقطاع والاستعمار ، وقد رفعت الروح المعنوية للشعب وأعطت الاستعمار دروساً لا تنسى

ولكنها مع ذلك انتهت إلى الفشل لعدة أسباب . . .

فقد فشلت لأنها كانت تفتقر إلى برنامج ثورى محدد يرسم لها طريق النصر والمحافظة عليه مما جعلها مجرد هبة أخرى من الهبات الشعبية التى تدل على السخط واللوم أكثر مما تهدف إلى التغيير والبناء .

وفشلت لأنها وثقت أكثر مما يجب فى أسرة شينج وحكومة المانشو ورفعت شعار تأييد البيت المالك الذى كان يعتبرها مجرد ورقة رابحة فى سياسته مع الأجانب وسرعان ما تخلى عنها ساعة الحسم وطعنها من الخلف .

وفشلت لأنها كانت حركة فلاحين فحسب ولم تعتمد على البروليتاريا الصناعية التى بدأت فى الظهور بالفعل نتيجة لحركة التصنيع التى قام بها رأس المال الوطنى والأجنبى منذ ربع قرن .

وفشلت لأنها لم تنجح فى كسب تأييد البرجوازية الصينية بشطريها الثورى والمعتدل على السواء .

ولذلك كان من الطبيعى أن يتوقى طريق الكفاح الوطنى هذه الأخطاء إذا أراد أن يكلل بالنجاح ، وهذا ما فعلته الحركة الديموقراطية الثورية التي رفع لواءها صن يات صن .

١٠ ـ سقوط الإمبراطورية

كانت ثورة التايبنج موجهة ضد المانشو والإقطاعيين لا الأجانب فطعنها الأجانب متحدين مع المانشو .

وكانت هبة الملاكمين موجهة ضد الأجانب لا المانشو ، فطعنها المانشو من الخلف متحدين مع الأجانب .

والآن وعى الشعب الصينى دروس الثورتين فرفع شعار سقوط المانشو والمعتدين الأجانب ، فهما فى الواقع عدو واحد بوجهين مختلفين : فالاستعمار الأجنبى سند للرجعية الداخلية ، والرجعية الداخلية حليف للاستعمار الأجنبى ، ولا شىء يغير من هذا القانون فى أى زمن أو مكان .

وبعد فشل حركة الإصلاح وإخماد هبة الملاكمين رفع لواء الجهاد صيدلى احترف السياسة هو الدكتور صن يات صن زعيم العناصر الثورية من البرجوازية، وكفاح صن يات يعود إلى عام ١٨٩٥ حين قام بمحاولة ثورية فى كانتون أخمدت بالقوة ولكن فشله لم يزده إلا تصميماً ، فى عام ١٩٠٤ كتب فى كتابه « حل مشاكل الصين » يقول : « إن حكم المانشو أصبح كالبناء الآيل للسقوط : وضرب الفساد تماماً فى هيكله ، ولن تستطيع أية قوة أجنبية أن تنقذه من الانهيار» .

وكان الموقف فى الصين قد وصل إلى نقطة حتمية الانفجار ، فقد ازداد تدخل الاستعماريين فى شئون الصين الداخلية عن طريق عملائهم من المسئولين تجار الكومبرادور ، واستطاعوا الحصول على امتيازات ضخمة سيطروا بها تماماً على اقتصاديات الصين وأقوات شعبها ، وفى عام ١٩٠٠ بعد إخماد هبة الملاكمين أصدرت الإمبراطورة دو واجر تزو هسى إعلاناً رسمياً أعلنت فيها صراحة « أن السياسة الخارجية لحكومة شينج تهدف إلى إرضاء الدول والأجنبية بأقصى ما تسمح به موارد الصين » !

ولقد بلغ من هوان حكومة شينج أنها وقفت موقف المتفرج إزاء الحرب الروسية اليابانية التى دارت على أرض الصين عام ١٩٠٤ بحجة التزام الحياد الدقيق !

وفى نفس الوقت كانت أعمال المعارضة والثورة والتمرد تنتشر ضد الحكام الخونة فى كل قطاعات الشعب وكل أقاليم البلاد ، فنى عام ١٩٠٣ حدثت ٤٥ هبة شعبية ، وفى ١٩٠٤ حدثت ٩٠ هبة شعبية ، وفى ١٩٠٥ حدثت ٨٥ هبة مماثلة ، وأكثر من ذلك فى السنوات التالية .

وكان آلاف الشبان المثقفين قد بدءوا يسافرون إلى الخارج ولا سيما إلى اليابان للدراسة والتحصيل ، وتكونت بينهم عشرات

الجمعيات الثورية فى داخل الصين وخارجها من أهمها « كوانج فو هوى » (رابطة الإصلاح) التى أنشئت عام ١٩٠٣ فى كيانجسو وشيكيانج من بين المبعوثين العائدين ، وهوا هسينج هوى (رابطة إحياء الصين) التى أنشئت فى هوبيه وهونان عام ١٩٠٤ ممن تلقوا دراستهم فى اليابان و جيه شيه هوى (جمعية الدراسات اليومية) التى أنشئت أيضاً فى هوبيه فى نفس العام .

وفى يوليو عام ١٩٠٥ عقد المبعوثون إلى اليابان مؤتمراً فى طوكيو أسفر عن إنشاء جمعية تونج فنج هوى (الرابطة الثورية) برئاسة الدكتور صن يات صن ،وكان برنامجها ينص على التخلص من حكم المانشو وإعلان الجمهورية وإنعاش الصين وتحقيق المساواة فى الملكية الزراعية وذلك عن طريق تنظيم الكتل الجماهيرية والقيام بثورة شعبية تطيح بالأوضاع القائمة وتنشئ دولة وطنية ديموقراطية مستقلة .

ولم يلق هذا البرنامج تأييد البرجوازية الثورية وحدها وإنما رحبت به أيضاً جماهير الشعب مما جعل الرابطة الثورية تصبح فى أمد قصير أكبر قوة تدفع الثورة الديموقراطية إلى الأمام ، واستطاعت أن تبتلع عشرات الجماعات الثورية الأخرى وأن تمد

نفوذها إلى وحدات الجيش الإمبراطورى بين الضباط والجنود الذين تدربوا طبقاً للمناهج الحديثة .

وقامت المنظمة بهبات متعددة كانت تخمد لأنها لم تلق تأييداً كافياً من الجماهير غير المنظمة ،ولكنها أفادت صن يات صن وزملاءه فى التمرس على العمل الثورى فكراً وتطبيقاً ، غير أن المساهمة الكبرى للمنظمة كانت ما قامت به فى ميدان الدعاية للقضية الوطنية عن طريق صحيفتها المسماة « مين باو » أى « صحيفة الشعب » وعن طريق المنشورات والكتيبات التى كانت تنشرها فيتلقفها الشباب والجنود . وينشرون ما فيها من أفكار محددة وجديدة بين مختلف قطاعات الشعب الذى لا يعرف معظمه القراءة والكتابة .

وأدركت حكومة المانشو أنها أصبحت تقف على برميل من البارود مهيأ للانفجار ، فقررت القيام بمناورة بارعة لإنقاذ نفسها من المصير المحتوم فأعلنت أنها قررت أن تتحول ذاتياً إلى حكومة دستورية، وأفصحت عن نيتها هذه فى إصدار عدد من قوانين الإصلاح وكادت هذه المناورة توقع الكثيرين فى حبائلها وتفتت الوحدة الوطنية فى الكفاح ،فقد تلقفها كانج يو وى وليانج شن شاو وغيرهما من دعاة الإصلاح الذين لجأوا إلى

الخارج بعد فشل حركة الإصلاح عام ١٨٩٨ وكانوا بالرغم مما أصابهم على يد أسرة شينج ما زالوا مقيمين على مبادئهم فى الدعوة إلى الملكية الدستورية ومعارضة الإطاحة بالأسرة الحاكمة. وعندما بلغهم عزم حكومة المانشو فى الأخذ بفكرة الإصلاح الدستورى استخفهم الطرب ، فها هى أفكارهم قد وجدت صداها المأمول وأصبحت على وشك التحقيق ، وقام كانج يو وى وبعض زملائه بتكوين جمعية شنج ون شيه (الرابطة السياسية) فى طوكيو وأصدروا بياناً بتأييد التدابير الموعودة ، وعاد كثيرون من أعضاء الرابطة إلى الصين حيث عقدوا الاجتماعات وأصدروا المطبوعات دفاعاً عن الإصلاح الدستورى الذى كان يبدو فى أعين الناس حينئذ كفكرة عفى عليها الزمن ، وهكذا أخذت تظهر إلى الوجود قوة رجعية سياسية منظمة .

ولكن صن يات صن زعيم القوى الديموقراطية الثورية أخذ موقفاً صارماً من هذا الاتجاه ، فاستنكر الحركة بشدة مبيناً أن الملكية الدستورية أصبحت أمام الجيشان الشعبى هى الشكل الوحيد الذى يتيح للإقطاع البقاء ، ولذلك فإنها تلقى تأييد الرجعيين والإقطاعيين ، وبفضل هذه المعارضة الواعية أمكن شجب هذا الطريق نهائيًّا وإزالة العقبات أمام طريق الخلاص الوحيد .. الثورة الراديكالية .

وازدادت هبات الشعب التلقائية زيادة كبيرة : فقد حدثت ١٦٠ هبة شعبية فى عام ١٩٠٦ وارتفع الرقم إلى ٢٨٤ فى عام ١٩١٠ واشترك فى هذه الهبات لأول مرة العمال وممثلو البرجوازية الصغيرة إلى جانب الفلاحين ، ورفض الناس دفع الضرائب ، وتحدوا ممثلى الحكومة ، ونهبوا مخازن القمح ، وقاوموا البعثات التبشيرية ، وحطموا مصانع الأجانب ومتاجرهم ، وبدا واضحاً أن المزقف قد خرج تماماً من يد حكومة المانشو وحلفائها من المستعمرين الأجانب .

وفى ١٠ أكتوبر ١٩١١ اندمجت جميع المنظمات الثورية العاملة فى إقليم هوبيه فى منظمة تونج فنج هوى ونجحت المنظمة فى القيام بثورة مسلحة استولت فيها على حامية ووشانج ثم استولت على هانكاو وهانيانج ، وخلعت حكومة الإقطاع المحلية فى المنطقة وأعلنت قيام الجمهورية .

وخلال شهر واحد حدثت سلسلة من الثورات المماثلة فى مختلف أنحاء الصين أسفرت عن إعلان الجمهورية فى ١٧ إقليماً من أقاليم الصين التى يبلغ عددها ٢١ إقليماً ، وأخذ حكم أسرة شينج يترنح فى الأقاليم الأربعة الباقية .

كان هذا النصر السريع أبعد مما تخيله الثوريون أنفسهم ،

ولم تكن منظمة تونج فنج مستعدة بأية خطوة مدروسة موحدة لتوجيه الحركة الثورية الكاسحة، حقاً لقد شارك أعضاؤها فى القتال ببسالة ولكنهم كانوا أعجز من أن يقدموا قيادة ثورية فعالة للجماهير ، وزاد من اضطراب الموقف أن معظم المسئولين الذين ارتبطوا بالنظام القديم حينما واجههم طوفان الثورة أعلنوا أنفسهم من كبار الثوريين فكان حكام الأقاليم إذ يرون طلائع الثورة قادمة إليهم ، ويحسون بلهيبها يلفح وجوههم ، يسارعون إلى خلع أرواب المانشو ويعلقون شعارات الثورة على مقارهم ويمضون فى الحكم كأن شيئاً لم يكن ، وهكذا تسلل الرجعيون إلى صفوف الثورة ، واختفى النظام القديم بكل رجعيته وفساده تحت ستار النظام الجديد فى انتظار فرصة للانقضاض عليه وسلب ثورات النصر . . .

وفى أول يناير عام ١٩١٢ أعلنت فى ناتكنج الحكومة المؤقتة لجمهورية الصين برئاسة صن يات صن ، وأصدرت الحكومة دستوراً مؤقتاً يكفل كثيراً من الحريات الديموقراطية الواسعة للشعب وكان يعتبر دستوراً تقدمياً بالنسبة لعهده .

غير أن هذا الوليد الثورى جاء مخلوقاً مشوهاً غير قادر على الحياة، فقد كانت الخميرة الرجعية تتفاعل فى أعماقه كقنبلة

زمنية تنتظر ساعة الانفجار ، فقدامى الموظفين والمثقفون البرجوازيون والتجار الرأسماليون يقبضون على مقاليد السلطة الحقيقية فى الدولة الجديدة ولا سيما شئون المال والاقتصاد ، وكان أكثر ما يزعجهم أن لا يكتفى الشعب بتغيير الهيكل الحكومى ويمضى قدماً فى تغيير النظام الاجتماعى نفسه ، وإذا كانوا قد أعلنوا ولاءهم الظاهرى لقائد الثورة صن يات صن إلا أنهم ظلوا يتصيدون الفرصة لإبعاده .

وأخيراً واتتهم الفرصة فى شخص يوان شيه كاى ممثل الرجعية العتيد الذى تقدم فى ثقة وصفاقة لاستلاب ثمرات النصر من الشعب .

وكان يوان شيه كاى سياسياً عسكرياً قديماً ، وممثلا لكبار الملاك والكومبرادور والبرجوازية الكبيرة ، وخادماً مطيعاً للاستعماريين الأجانب ، وقد ساهم فى خيانة حركة الإصلاح عام ١٨٩٨ ، وفى سحق هبة الملاكمين عام ١٩٠٠ ، وفى كبت مظاهر السخط الشعبى بعد ذلك ، وفى عام ١٩١١ عندما كانت ثورة صن يات صن فى أوجها استدعته أسرة شينج وعهدت إليه بمهمة الدفاع عن البلاد ، ولكن الاستعماريين الأجانب وقد رأوا أن أسرة شينج غير قادرة على حماية

مصالحهم وغير صالحة للبقاء فضلوا أن يستولى يوان شيه كاى على الحكم باعتباره « الرجل القوى » الذى يستطيع أن يعيد السلام والنظام إلى الصين ، وبدأ الأجانب يضغطون على الحركة الثورية وحكومة المانشو معاً لتسليم مقاليد الأمور إلى يوان شيه كاى وزير الدفاع ، فقدمت بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا واليابان وغيرها من الدول الاستعمارية إنذاراً إلى الحكومة الثورية المؤقتة فى نانكينج هددت فيه بالتدخل بالقوة لإعادة النظام بحجة أن حالة الفوضى القائمة تهدد المصالح الأجنبية فى الصين ، ووعدت يوان شيه كاى بالتأييد الأدبى والمادى إذا نجح فى إقناع الإمبراطور بالتنازل له عن الحكم .

ولو كانت الحركة الثورية على شىء من الصلابة لتمكنت من مقاومة ذلك الخطر الرجعى الذى يحيط بها لأن الشعب كان على استعداد للذهاب فى الكفاح والتضحية إلى أقصى حد ، ولكنها للأسف كانت لينة وخائرة بفعل المتناقضات الداخلية والذين تسللوا إلى صفوفها من الخونة والانتهازيين ، وفى الواقع أظهرت جمعية « تونج منج هوى » خوراً شديداً لا يقاس ببطولة التايبنج أو جسارة الملاكمين ، فلم يلبث أن خرج من صفوفها كثيرون من أعضائها المتأثرين بالنفوذ القديم ، وأعلن

البعض منهم تأييدهم ليوان شيه كاى ، وكوّن آخرون جماعات منافسة تطالب بحل جميع الأحزاب السياسية وتحث صن يات صن على التنازل عن الرئاسة ، وذهب بعض القادة إلى أبعد من ذلك خوفاً من قوة الشعب فحلوا قوات المليشيا المسلحة التى لعبت دوراً حيوياً فى ثورة ١٩١١ وأصبح واضحاً للعيان أن الحركة الثورية قد تفسخت من الداخل .

وأخيراً اضطر صن يات صن إلى التنازل عن رئاسة الحكومة المؤقتة إلى يوان شيه كاى ، ولكنه حفظاً لماء وجه الثورة اشترط عليه أن يقطع علاقاته تماماً مع حكومة شينج ، ويتعهد بالدفاع عن الجمهورية ، واحترام الدستور المؤقت .

وفى فبراير ١٩١٢ تنازل الإمبراطور الطفل هسيوان تونج عن العرش وتولى يوان شيه كاى الرئاسة المؤقتة لجمهورية الصين الجديدة ، وبذلك توارت حكومة شينج لتحل محلها حكومة من عملاء الإقطاع والاستعمار ، وفى عهد هذه الحكومة ظلت الصين دولة شبه إقطاعية وشبه مستعمرة ، وأصبحت ضحية للمنازعات بين الأسياد الإقطاعيين الذين يتلمسون التأييد لدى مختلف الدول الأجنبية التى تثير بعضهم على بعض .

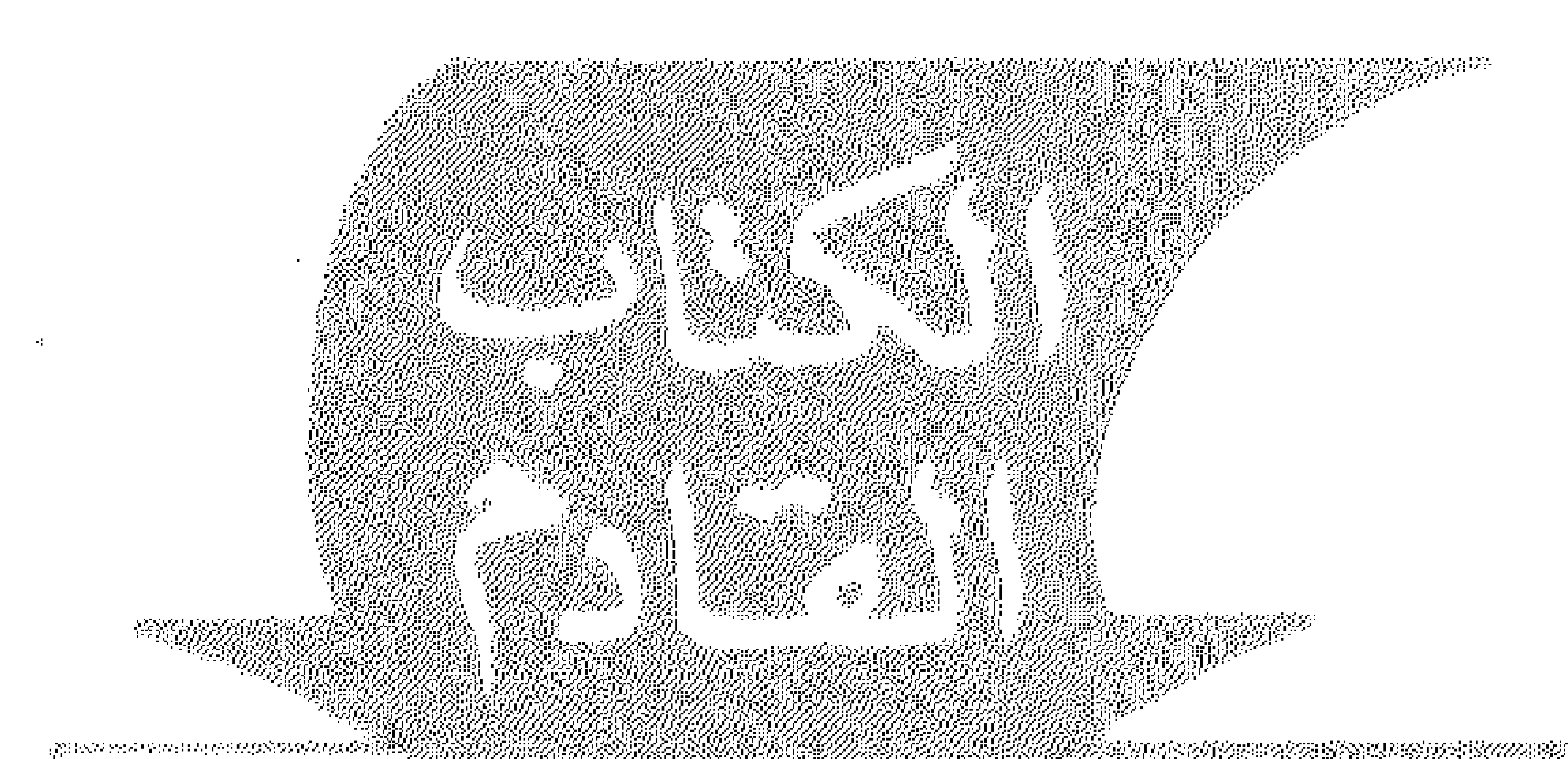
ولكن ما هو الحساب الختامى لثورة ١٩١١ ؟ وهل نجحت الثورة أم فشلت ؟ الواقع أنه لو كانت ثورة صن يات صن قد

فشلت فى تغيير طبيعة المجتمع الصينى ، فإنها فى نفس الوقت قد نجحت فى القضاء على النظام الإقطاعى الملكى الذى استمر آلاف السنين . وزرعت فكرة الجمهورية الديموقراطية فى قلوب الصينيين ، وفى هذا المعنى كتب ما وتسى تونج يقول :

« منذ خمسين عاماً حققت الثورة التى قام بها دكتور صن يات صن أوجه نجاح وباءت بجوانب فشل ، لقد نجحت ثورة ١٩١١ فى التخلص من الإمبراطور ولكنها فشلت فى أن تفعل أكثر من ذلك : وظلت الصين تحت نير الاستعمار والإقطاع دون إنجاز للواجب الثورى الذى يحتم القضاء على الإمبريالية والإقطاع » .

وهكذا ، وبالرغم من طريق الكفاح الشاق الطويل الذى قطعه الشعب الصينى منذ فرض الاستعمار عليه حرب الأفيون حتى سقوط الإمبراطورية الشائخة عام ١٩١١ ، وبالرغم من كل الآلام والتضحيات ظلت هناك فراسخ أخرى يتحتم على الشعب الصينى أن يقطعها فى زحفه الطويل حتى ينتزع النصر الأخير .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨



اقرأ

الرسول في رمضان

علي حسني الخربوطلي

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة والشباب

مجموعة قصص وأساطير من الصين

● صفوة مختارة من القصص تمتاز بالخيال الخصب الرائع والعبرة والموعظة الحسنة .

صدر منها :

١ — شجرة الكرز العجيبة ٤ — حكم رادع ٧ — الحماقات الثلاث
٢ — رأس من طين ٥ — الأصدقاء ٨ — الحبوب المقوية
٣ — هدية التنين ٦ — كلام بوذا ٩ — الملك شقرا

ثمن النسخة من كل كتاب ٧ قروش

وتقدم للأطفال والناشئة

مجموعة حكايات صينية

● تستهوى الناشئة بتصويرها الجميل ، وإخراجها المتقن ، وتمتاز بالضبط الكامل لشكل الحروف لتعودهم القراءة الصحيحة .

صدر منها :

١ — النهر الأحمر ٤ — الصنم السكرى ٧ — لوا الأحدب
٢ — القفاز السحرى ٥ — البطيخ اللؤلئى ٨ — كنز الفضة
٣ — جبل الكنوز السبعة ٦ — الثأر

ثمن النسخة من كل كتاب ٦ قروش

خذ المعارف من دار المعارف